المواد الغيثية

الناشئة عن الحكم الغوثية

للشيخ

احمد بن مصطفى

العلاوي

الطبعة الثانية سنة 1989

الشيخ

احمد بن مصطفى العلاوي

المواد الغيثيـــة

الشيخ

احمد بن مصطفى العلاوي

المواد الغيثية

الجزء 1

الطبعة الثانية سنـــ1989ـــة

الشيخ
احمد بن مصطفى العلاوي

المواد الغيثية

الجزء 1

الطبعة الثانية سنة 1989

ترجمة المؤلف

إنني كيفما حاولت أن أحرر كلمة جامعة لترجمة المؤلف مولانا الأستاذ سيدي أحمد بن مصطفى العلاوي رضوان الله عليه إلا وأجد نفسي قاصرا أن نأتي بترجمة جامعة لشتات مناقبه الفاخرة أو أعماله الخالدة ولكن بما أننا توفقنا إلى طبع هذا الكتاب المفيد والعقد الفريد رأينا من الواجب المحتم أن لابد من ذكر شيء من ترجمته الواسعة النطاق جريا على ماجرت به سنة المحافظين على جمع الآثار الطيبة لأئمة الدين ولو كان صاحب الأثر أشهر من أن يترجم له كإمامنا صاحب هذا الكتاب فإنه الرجل الذي طار صيته في الخافقين وسار ذكره في المشرقين والمغربين ولا شاهد أعدل على علو مكانته وسعة تفننه من تحاريره النيرة التي منها هذا الكتاب الذي كاد أن يكون فريدا في موضوعه أو وحيدا في أسلوبه لما اشتمل عليه من غزارة العلم ورقة التعبير، حقا المرء مخبوء تحت لسانه، أوالمرء بأصغريه قلبه ولسانه.

وبالجملة فإنه ما من تآليفه من تآليفه يتصفحه المنصف إلا ويجد فيه من أول وهلة ما لفضيلته رضوان الله عليه من الباع الطويل والقدر الجليل، وهو المربي الحكيم والقدوة الكريم، شيخ المشايخ المهتدين وعمدة العارفين الصادقين، يتصل نسبه الشريف بأجداد كرماء عرفوا بالفضل والعلم والوجاهة، وهو مولانا ووسيلتنا إلى ربنا سيدي أحمد بن سيدي مصطفى بن محمد المعروف بالقاضي، بن محمد المعروف أيضا «بأبى شنتوف» القائل فيه صاحب سبيكة العقيان الفقيه

الشريف سيدي «محمد بن حواء» دفين مستغانم

والحنفي الـلازم التعبـــد ★ نجل عليوة الفقيه المهتـدي

ابن الولي الصالح، الملقب «بمدبوغ الجبهة» بن الحاج علي المعروف عند العامة «بعليوة» وهو المنتسب إليه ابن غانم القادم من الجزائر إلى مستغانم بصفته قاضيا عليها، فبان فضله وظهر عدله إلى أن طاب بها عيشه واختارها مسكنا لنفسه ولعائلته ولا زال إلى اليوم من بقي منهم معروف بالوجاهة والعفاف وبيتهم بيت علم وصلاح.

أما الأستاذ رضوان الله عليه فقد تربى في صيانة والديه فنجبا ولدا صالحا مفطورا على التقوى وحب الخير مشتغلا بتعلم كتاب الله وما يلزمه من ضروريات المبادئ العلمية إلى أن مات والده رحمه الله، فاشتغل بالتجارة إلى أن ساقه الله إلى صحبة الشيخ الكامل الخلل الذكر الفائض السر الشيخ سيدي محمد بن الحبيب البوزيدي طيب الله ثراهما بسحائب رضوانه، فعنه أخذ ومنه تمكن بعلم التصوف إلى أن صار فيه إماما من أئمته، وهكذا يجتبي الله من يشاء ويهدي إليه من ينيب، والله يرزق من يشاء بغير حساب، والله ذو الفضل العظيم.

بســـــــــم الله الرحمٰن الرحيم

بعد ذكر الإسم والاستعاذة بالمسمى، يقول أحمد بن مصطفى العلاوي اعتقادا وجزما: حمدا لمن ظهر بعظمة ذاته قدرة وحكما، وتنزه في تجليات صفاته حكمة وعلما، هو الأول والآخر والظاهر والباطن في الارض والسماء، فشاهده من اصطفاه لحضرته، وجهله الجاحد المصمى. وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة كشف ويقين، تشفي الغليل وتبرد الظمأ، فسبحانه جل جلاله أن يصفه الواصفون، أو يحوموا حول ذلك الحمى، ولولا لطف الله بمخلوقاته، ورحمته بمصنوعاته، لما لبث من يلحد في سلطانه، بأن يخسف به الأرض أو يسقط عليه السماء أو تسحقه الرياح سحقا فتذره بعد سمعه وبصره أصمّ أعمى، ولكن سبحانه من إله رؤوف رحيم، سبقت إرادته مشيئته ورحمته غضبه، فكان الكل في جوده مقيما منعما، كلت الأذهان عن إدراك حقيقته، وعجزت الأفكار عن أن تحيط بشيء من علمه **وسع كل شيء رحمة وعلما.**

وأشكرك اللهم على ما أوليتنا ومنحتنا من معرفة سرك المصون، كرامة منك وحلما، وأسألك بجودك أن تحفظنا فيما منحتنا، حفظا وعصمة لا يغادران وهما؛ وأستغيثك أن تـمطر علينا سحائب الرحمة، وأن تمدنا بقوة منك ثباتا وحزما، وأن تحمينا وتقينا من شر أنفسنا فيما نسينا أو أخطأنا أو تعمدنا جورا وجهلا، وعدوانا منا وظلما، وأن ترحمنا إن كنا أهلا، وإلا فأنت أهل للمغفرة والرحمة، لكل من إليك انتسب وانتمى؛ وأسألك أن تبارك وأن تعظم وأن تصلي صلاة بقدر

وسعك وعظمة ذاتك، على رسولك روحا وجسما، بقدر ما يستحقه من الصلاة ويرضيه من الكرامات، حسبما يناسب مقامه الاسمى. وعلى آله وصحبه وذرياته وأزواجه ما دامت الأرض والسماء، وعلى أمته خصوصا وعموما، كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وكيف لا وقد قلت وقولك الحق، تنويها وتعليما وتشريفا لقدر نبيك المصطفى وتعظيما: **إن الله وملائكته يصلون على النبيء يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما.**

وقبل الشروع في المقصود أذكر مقدمتين: المقدمة الأولى تشتمل على أسباب شرح الكتاب وتفصيل فصوله. المقدمة الثانية تشتمل على ترجمة المؤلف وبعض سيرته، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المقدمة الأولى: في أسباب شرح الكتاب وتفصيله فصولا، الله حسبي فيما كتبته، له الحمد وبه المستعان، له المنة فيما رسمته، فليس لنا إلا البيان أستغفر الله فيما ذكرته، فلا يد لنا ولا لسان، له الخلق وله الأمر، ففي كل شيء شأن وشأن.

وبعد فالذي تعين ذكره هو الإهتمام بهذه الحكم الشريفة فأقول: انه كان منذ ستة عشر سنة من الزمان وقعت بيدنا هذه الحكم، وبيد جماعة من الإخوان دالة لسيرنا إلى الله في مقامات الإحسان، فاكتسبنا بمطالعتها ارتياحا، وزادت الصدور بمشاهدتها انشراحا، من أجل ما احتوت عليه من الحقائق، واشتملت عليه من الرقائق، فقد اتضحت الحقائق فيها إيضاحا، فكم من عاص أوعظته موعظتها، وكم من حائر أخذت بيده عبارتها، خصوصا قوله رضي الله عنه: **إذا ظهر الحق لم يبق**

معه غيره. فكم اشار الى إظهار الحقائق وابطال التقييد، وكم ارشد السائر الى معنى الوصول، وحقيقة التوحيد، وكم شوق المشتاقين، ونصح الغافلين، ما على نصحه من مزيد، حتى قال: **من لم يصبر على صحبة مولاه ابتلاه الله بصحبة العبيد.** ياله من حكيم قام بما يجب عليه، وليس علينا إلا الإقتداء به وبأمثاله، **اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده.**

هذا الذي أوجب اعتناءنا به، ورغبتنا فيه، وإن قل المشتغلون بخدمته، ثم أقول: وإن اشتغل البعض به، فإنه لم يوف بغرضه، وفي الغالب عاقه من أن تنتفع العباد به، ومن أن يتشرف الطالبون بدراسته، كما تشرفوا بغيره، لكن لا بد للشمس من سحاب، وذلك من فضل الله عليه، وعندما طالعناه لم ألبث أن قلت من غيرتي عليه: إن فسح الله في حياتي، وتولاني بفضله، وأتم علي من نعمته كما هو من نعته، وشرح صدري، وحل لساني من عقدته، وفقه قولي، لكي أقدر أن أفصح عن بعض ما احتوى عليه، لأجعلن عليه شرحا تبركا به، وتشريفا لقدره، وبعد نذري طال الزمان، ونسيت ما عاهدتالله عليه، حتى أيقظني سبحانه وتعالى على لسان بعض من أحبائه قائلا: لابد أن توفي بما عاهدت الله عليه، وأن تقوم بخدمة هذا الولي، وإنك ملزوم به، **والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه،** وما ذلك إلا غفلة منك وتقصير في جانبه، وأبشرك بقبوله بين الخليقة، فعند ذلك حركتني عنايته، وعملت بإذنه، فالله يجازي من يفعل خيرا، أو يأمر به، وكيف لا، **والدال على الخير كفاعله،** وعندما تحققت أن لا بد لي من شرحه، عزمت على دخول البحر من شاطئه، لكي أستخرج له حلة من جنسه، وأتحفه بتحفه من نعته، وإن كنت لست

من ذويه، فمن جالس العطار طاب بطيبه، فلا جرم ان قلنا لنا نصيب من ذوقه، ولله المنة لا ممسك لفضله، **إذا أنعم الله بنعمة على عبد أحب أن ترى عليه،** وإني مرتجي الله أن ينفعني وينفع به، وأن نكون سببا في تعاطيه ونشره، وعلى الأقل من ذلك نتشرف بخدمته، فقد يتشرف المضاف بشرف المضاف إليه، لقوله رحمة الله عليه:[من جالس الذاكرين انتبه من غفلته، ومن خدم الصالحين انتفع بخدمته]

أخدمهم وإن كنت لم أوف بحقهم * فقد يخدم النغي حضرة السلطان

ولا غروى إن حميت لبعض كلامهم * فقد حمت الشراح ألفاظ القرآن

ثم اعلم أني رتبت هذه الحكم على خلاف ما رتبت عليه، راجيا بذلك تمام الإفادة، حيث فصلتها على فصول، حسب المقامات، ومقتضى الأقوال، فكل حكمة ضممتها إلى جنسها انضماما مقبولا، ترغيبا للقاريء وتسهيلا عليه، كي لا يكون مملولا، حتى إذا أراد مطالعة فصل يجد ما يوافق المأمول، وزيادة أني لم أجد الحكم مرتبة ترتيبا معقولا، بل كل نسخة إلا وتباين أختها في النقول، فأخذت بجمع ما عثرت عليه، مع تصحيح نسبته للمؤلف رضي الله عنه حسب طاقتي واجتهادي فيه، وعند جمعه لم يتعين عندي ما أصدر به في صدر الكتاب، فأشار علي من ينبغي العمل بمشورته، أن أجعله فصولا، وكل كلام أستميله إلى جنسه، بعد ما استأذنت أستاذنا المؤلف قلبيا، رحمة الله عليه فظهر لي يقينا، أن ذلك من حسن العمل، لأن الحكم لا يعتبر أولها من آخرها، إنما تعتبر الحكمة نفسها، فهو مباين للتأليف، وبيان مباينته أن التأليف يشترط فيه المناسبة بين الشيء الموضوع والموضوع عليه، ما طال الفصل إلى منتهى الكلام.

والحكم لا يشترط فيها ذلك، إنما تعتبر الحكمة في نفسها، ولهذا يقال: ان الحكماء تسبق أنوارهم أقوالهم. فلو اشتغل الحكيم أن يضع الحكمة على أختها، وتكلف للمناسبة، لخرج من فيض التعريف، ودخل إلى حيز التأليف، فلهذا كان تنسيق الحكم على غير نسق التأليف، وعلى هذا فالحكم يشترط فيها تأليف الكلام، وعليه فلا محظور في ترتيب الحكم على غير المنوال المعهود، حيث بقيت الحكمة على أصلها.

ثم اعلم أن الحكم جمع حكمة، وهي كلمة تشتمل على معنى يحصل به الإنتفاع، وقيل في تعريفها غير ذلك، وإنني أخبرت بعدد الحكم في أول الإشتغال بها، فإذا هي مائة وسبعون حكمة تقريبا. فرتبتها على ثمانية عشر فصلا، حسبما دلت عليه:

الفصل الأول: في النفس ومعالجتها
الفصل الثاني: في نهيه عن صحبة الأشرار
الفصل الثالث: في نهيه عن صحبة المدعين
الفصل الرابع: في تعريف شيخ التربية
الفصل الخامس: في العلم النافع
الفصل السادس: في الذكر ومجالسة الذاكرين
الفصل السابع: في الخشية والمراقبة
الفصل الثامن: في التسليم والتفويض
الفصل التاسع: في التوكل على الله عز وجل
الفصل العاشر: في الفقر وفضائله
الفصل الحادي عشر: في الزهد والقناعة

المقدمة الثانية: في ترجمة المؤلف، وبعض سيرته وفضائله، رحمة الله **عليه.**

اعلم وفقنا الله وإياك لمحبة أولياء الله العارفين، أن فضائل المؤلف رضي الله عنه كثيرة من أن تحصى، وأجل من أن تستقصى، وشهرته لا تخفى على البصير، ولكن لا بد من ذكر شيء في الجملة.

أقول: إن سيدي أبا مدين هو من ذوي الفضل لا محالة، واسمه شعيب ابن أحمد بن جعفر بن شعيب وكنيته أبو مدين تكنى بابنه سيدي مدين ذي الفضائل المشهورة دفين مصر المحروسة بجامع الشيخ عبد القادر الدشطوطي رضي الله عنه، ببركة القرع خارج الصور مما يلي شرقي مصر، عليه قبة عظيمة وضريح يزار، مشهود له بالفضل عند أكثر الزوار.

وأما المؤلف رضي الله عنه فضريحه بتلمسان وسياتى الكلام عليه. كان رضي الله عنه جميلا ظريفا متواضعا زاهدا ورعا محققا، قد اشتمل على كرم الأخلاق، وحسن الطوية، والعزوف عن الدنيا، ومما يدلك على زهده وورعه وتوجهه لله توجها بالكلية، ما يروى عنه في

حكمه، فمن ذلك قوله رضي الله عنه: **الفقر نور مادمت تستره، فإذا أفشيته ذهب نوره**، وقوله أيضا: **كل فقير كان الأخذ أحب إليه من العطاء فهو كاذب، لم يشم للفقر رائحة.** وكان يقول رضي الله عنه: **من اشتغل بالدنيا ابتلي بالذل فيها.** وكان يقول: **ليس للقلب إلا وجهة واحدة متى توجه إليها غاب عن غيرها.** وستأتي بقية حكمه، فكل حكمة تستحق أن تكتب بماء الذهب، ولا شك أن حاله يفوق مقاله، لأن العارف فوق ما يقول. فقد أجمعت مشايخ زمانه على تعظيمه، بل وكل من هو على آثارهم إلى يومنا هذا. قال عنصر مدد هذه الطائفة سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه، لما سئل عن مقامه فقال: جلت في ملكوت الله، فرأيت سيدي أبا مدين متعلقا بساق العرش، وهو يومئذ رجل أشقر أزرق العينين، فقلت له: وما علومك؟ وما مقامك ؟ فقال: علومى أحد وسبعون علما. وأما مقامي فرابع أربعة الخلفاء، ورأس السبعة الأبدال. وسئل رضي الله عنه عن مقامه فأجاب: **إن مقامي مقام العبودية، وعلوم الألوهية، وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية، ملأت علومه سري، وجهري، وأضاء بنوره بري وبحري، فالمقرب من كان به عليما، ولا يسمو إلا من أوتي قلبا سليما، الذي سلم مما سواه، ولا يكون في الوعاء إلا ما جعل فيه مولاه، فقلب العارف يسرح في الملكوت بلا شك (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب).**

وعن الشيخ أبي عبد الله محمد بن حجاج المغربي رضي الله عنه قال: سمعت شيخنا شعيبا أبا مدين رضي الله عنه يقول في مجلسه: كل بدل في قبضة العارف، لأن ملك البدل من السماء إلى الأرض، وملك

العارف من العرش إلى الفرش، وما مناقب البدل في مناقب العارف إلا كلمحة برق خاطف، وما درجة المعرفة إلا استقراب إلى الحضرة الالهية، واستدناء من مجلس القدس. ثم قال: **التوحيد سر احاط أمره بالكونين.** قال: فلما كان الليل نمت وإذا أنا بالشيخ أبي مدين في جماعة من العارفين رضي الله عنهم، فقلت له: أخبرني عن حقيقة سرك في توحيدك، فقال: سري مسرور بأسرار تستمد من البحار الإلهية، التي لا ينبغي بثها لغير أهلها، إذ الإشارة تعجز عن وصفها، وأبت الغيرة إلا سترها، هي أسرار محيطة بالوجود، لايدركها إلا من كان وطنه مفقودا، أو كان في عالم الحقيقة بسره موجودا يتقلب في الحياة الأبدية، وهو بسره طائف في فضاء الملكوت، ويسرح في سرادقات الجبروت، قد تخلق بالأسماء والصفات، وفنى عنها بمشاهدة الذات، هنالك قراري ووطني، وقرة عيني ومسكني، والحق عز وجل في غنى عن الكل، قد أظهر في وجودي بدائع قدرته، وأقبل علي بالحفظ والتوفيق، وكشف لي عن مكنون التحقيق، فحياتي قائمة بالوحدانية، وإشارتي إلى الفردانية، فروحي راسخ في العيب، يقول لي مالكي:ياشعيب،كل يوم جديد على العبيد،ولدينا مزيد.قيل لي ياأبا مدين،زادك الله من أنواره.قال: فلما أصبحت أتيت الشيخ أبا مدين،وذكرت له هذه الواقعة،فأقر لي عليها،ولم ينكر علي منها شيئا.

وأما منشؤه ومسكنه، وتاريخ ولادته، فكان إزدياده رضي الله عنه بالاندلس سنة: 492 هـ - 1098 م، وبعد منشئه فيها ذهب إلى فاس وتفقه بها، وسكنها مدة، حتى جمع ما يحتاج إليه، وقرأ على شيوخ عديدة، من جملتهم الشيخ الحافظ العلامة أبو الحسن بن غالب

العارف من العرش إلى الفرش، وما مناقب البدل في مناقب العارف إلا كلمحة برق خاطف، وما درجة المعرفة إلا استقراب إلى الحضرة الالهية، واستدناء من مجلس القدس. ثم قال: **التوحيد سر احاط أمره بالكونين.** قال: فلما كان الليل نمت وإذا أنا بالشيخ أبي مدين في جماعة من العارفين رضي الله عنهم، فقلت له: أخبرني عن حقيقة سرك في توحيدك، فقال: سري مسرور بأسرار تستمد من البحار الإلهية، التي لا ينبغي بثها لغير أهلها، إذ الإشارة تعجز عن وصفها، وأبت الغيرة إلا سترها، هي أسرار محيطة بالوجد، لايدركها إلا من كان وطنه مفقودا، أو كان في عالم الحقيقة بسره موجودا يتقلب في الحياة الأبدية، وهو بسره طائف في فضاء الملكوت، ويسرح في سرادقات الجبروت، قد تخلق بالأسماء والصفات، وفنى عنها بمشاهدة الذات، هنالك قراري ووطني، وقرة عيني ومسكني، والحق عز وجل في غنى عن الكل، قد أظهر في وجودي بدائع قدرته، وأقبل علي بالحفظ والتوفيق، وكشف لي عن مكنون التحقيق، فحياتي قائمة بالوحدانية، وإشارتي إلى الفردانية، فروحي راسخ في العيب، يقول لي مالكي:ياشعيب،كل يوم جديد على العبيد،ولدينا مزيد.قيل لي ياأبا مدين،زادك الله من أنواره.قال: فلما أصبحت أتيت الشيخ أبا مدين،وذكرت له هذه الواقعة،فأقر لي عليها،ولم ينكر علي منها شيئا.

وأما منشؤه ومسكنه، وتاريخ ولادته، فكان إزدياده رضي الله عنه بالاندلس سنة: 492 هـ - 1098 م، وبعد منشئه فيها ذهب إلى فاس وتفقه بها، وسكنها مدة، حتى جمع ما يحتاج إليه، وقرأ على شيوخ عديدة، من جملتهم الشيخ الحافظ العلامة أبو الحسن بن غالب

فإنه أخذ عنه أكثر محصولاته، وكان يقول رضي الله عنه: كنت في أول أمري وقراءتي على الشيوخ، إذا سمعت تفسير آية، أو معنى حديث، قنعت به وانصرفتَ لموضع خال خارج عن فاس، اتخذه مأوى للعمل بما فتح الله به علي، فإذا خلوت به تأتيني غزالة تأوي إلي وتؤنسني، وكنت أمر في الطريق فكانت كلاب القرية المتصلة بفاس تدور حولي، وتبصبص لي، فبينما انا ذات يوم بفاس واذا برجل من معارفي بالأندلس سلم علي فسلمت عليه، وأحببت ضيافته، فبعت ثوبا بعشرة دراهم، فطلبت الرجل لأدفعها له، فلم أجده هنالك، فخليتها معي، وخرجت لخلوتي على عادتي، فمررت بقريتي فتعرضت لي الكلاب، ومنعتني الجواز، حتى خرج من القرية من حال بيني وبينها، ولما وصلت لخلوتي، جاءتني الغزالة على عادتها، فلما شمتني نفرت عني، وأنكرت علي فقلت: ما أتى ما الذي علي إلا من أجل هذه الدراهم التي معي، فرميتها عني فسكنت الغزالة، وعادت لما لها معي، ولما رجعت لفاس أخذت الدراهم، فلقيت الأندلسي فدفعتها له، ثم مررت بالقرية في خروجي إلى الخلوة، فدارت بي كلابها وبصبصت لي كعادتها، وجاءتني الغزالة على عادتها فشمتني من مفرقي إلى بين قدمي، وآنست بي، وبقيت كذلك مدة.

ولما فرغ رضي الله عنه من الإشتغال بالعلم الظاهر، تشوف لما وراء ذلك من تصفية الباطن، وأخذ الحقائق من أهلها؛ قال رضي الله عنه: لما سمعت بكرامة سيدي أبي يعزى المغربي وتكررت على سمعي فضائله، فامتلأ قلبي حبا من حسن سيرته، فقصدته مع جماعة من الفقراء، فلما وصلنا إليه، أقبل على الجماعة دوني، وإذا حضر الطعام منعني من الأكل

معهم وبقيت كذلك ثلاثة أيام، فأجهدني الجوع، وتحيرت من خواطر ترد علي وقلت في نفسي: إذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهي في المكان، فقام ومرغت وجهي فقمت فإذا أنا لم أبصر شيئا فبقيت طوال ليلتي باكيا، فلما أصبح الصباح دعاني الشيخ رضي الله عنه وقربني إليه، فقلت له: ياسيدي إنني قد عميت فإني لا أبصر الآن شيئا، فمسح بيده على عيني، فعاد بصري إلي، ثم مسح على صدري، فزالت عني تلك الخواطر، وفقدت ألم الجوع، وشهدت في الوقت عجائب من بركاته. ثم استأذنته في الإنصراف لزيارة البيت المعظم، فأذن لي وقال لي: ستلقى في طريقك أسداً فلا يروعك، فإن غلب عليك الخوف فقل له بحرمة آل النور إلا انصرفت عني. فكان الأمر كما قال.

ومن هناك توجه رضي الله عنه إلى المشرق، وآثار الولاية تلوح عليه، وأخذ عن العلماء الاعلام، واستفاد من زهاد المشرق وصلحائهم، وأما الشيخ عبد القادر الجيلى رضي الله عنه، فكانت ملاقاته به بعرفة فصحبه وقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرا من الحديث، وألبسه خرقة التصوف، وأودعه من أسراره، وحلاه بملابس الأنوار، فكان سيدي أبو مدين رضي الله عنه يفتخر بصحبته، ويعده من أكابر مشايخه، ولما رجع من حجته، وجولانه من سياحته، لم تحل له في الإستقرار إلا بجاية فإنه استوطنها، وكان يقول: إنها معينة على طلب الحلال. ولم يزل بها يزداد حاله رفعة على مر الليالى والأيام، وكانت ترد عليه الوفود وذوو الحاجات من الآفاق، وكان له إطلاع وكشوفات، ولما شاع أمره وانتشر خبره، وشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور وقالوا: إنه يخاف منه على دولتكم، فإن له شبها بالمهدي يعني بالإمام المهدي، وله أتباع كثيرة في

أغلب البلاد، فوقع له خوف في قلبه، واهتم بشأنه، وبعث إليه بالقدوم ليختبره، وكتب لأصحاب دولته ببجاية بالوصية والإعتناء به، وأن يحملوه خير محمل، فلما تهيأ الشيخ للسفر، شق ذلك على أصحابه، وتغيروا وتكلموا معه في ذلك، فأسكتهم وقال لهم: إن منيتي قد قربت، وبقبور ذلك المكان قدرت، ولا بد لي منه، وقد كبرت وضعفت، فلا أقدر على الحركة، فبعث لي الله تعالى من يحملني إليه برفق، ويسوقني إليه أحسن سوق، وانا لا أرى السلطان وهو لا يراني، فطابت نفوس الفقراء بذلك، وعلموا أن ذلك من كرامته، فارتحلوا به على أحسن حال، حتى وصلوا حوز تلمسان، فظهرت رابطة العبّاد فقال رضي الله عنه لأصحابه: ما أحسنه محلا للرقاد، فأصابه مرض، وعند وصوله إلى وادي يسر اشتد به الألم، فنزلوا به هناك، بعد أن قال لأصحابه: أنزلوا بنا، ما لنا وللسلطان! الليلة نزور الإخوان، ثم نزل حوز تلمسان واستقبل القبلة ليلة دخوله، وتشهد ثم قال: ها أنا قد جئت **(وعجلت إليك رب لترضى)** ثم قال: الله الحق، ففاضت روحه، ثم حملوه إلى العبّاد وهي قرية تقرب من تلمسان، فدفن بها. وكانت جنازته من المشاهد العظيمة، والمحافل الكريمة، وتاب في ذلك اليوم الشيخ أبو علي الحباك وقيل: أن الإمام المنصور عوقب بسببه بعد أيام.

وكانت وفاته سنة: 573 هـ - 1177 م. وكان عمره يفوق الثمانين سنة، ونقل المعتنون بأخباره، أن الدعاء عند قبره مستجاب، وجربه جماعة؛ وممن حققه سيدي محمد الهواري في كتاب التنبيه وقد كان أستاذنا سيدي محمد البوزيدي رضي الله عنه، كثيرا ما يأمرنا بزيارته، ويذكره بالفضل، وأن الدعاء مستجاب عند قبره، وكان يقول:

إن سبب سياحتي إلى المغرب كانت ببركاته وبإذنه، وذلك أني بت ليلة في ضريحه، بعد أن تلوت شيئا من القرآن، وإذا به رضي الله عنه قد أتاني هو ورجل من أجدادي، فسلما علي ثم قال: اذهب إلى المغرب إنني سرحتك. قلت له: إن المغرب كثير السموم والحيات، وإني لا أقدر أن أسكنه، فأخذ يمسح على جسدي بيده المباركة، وقال لي: اذهب لا تخف، إننا حفظناك مما يطرأ عليك، فاستيقظت مرعوبا، ومن ضريحه توجهت إلى المغرب، فحصلت على ملاقة الشيخ سيدي محمد بن قدور رضي الله عنه.

قلت: ومن جملة ما شهدت أنا من الفضائل في زيارته، أني أردت الذهاب إلى تلمسان لقضاء حاجة مهمة، فأستاذنت الشيخ رضي الله عنه، في ذلك فأذن لي، وأمرني بزيارة سيدي أبى مدين فلما وصلت إلى تلمسان عاقني عن زيارته وجود المطر وشدة البرد، فمكثت نحو السبعة أيام في سبب ماذهبت لأجله، فتعذر علي ذلك من كل الوجوه، وفي اليوم السابع تذكرت زيارة الشيخ رضي الله عنه. فقلت لا بد لي من الوصول إليه، حيث أمرني أستاذي بزيارته، فمضيت لضريحه وتبركت بأعتابه، ثم رجعت إلى محلي، ونمت ليلتي، ولما بان الصباح أتاني بعض الأحبة وقال لي: أبشرك بقضاء حاجتك، فقلت: ومن أين ذلك؟ فقال لي: لأن الشيخ سيدي أبا مدين أتاني البارحة في المنام، وقال لي: قل لفلان إن حاجتك قد قضيت، ولم تتم الحكاية حتى قدم علينا من يخبرنا بتمام المقصود، فعلمت أن الشيخ رضي الله عنه ممن ينتفع بزيارته.

وأما وعظه رضي الله عنه، وكلامه فقد كان يسري في القلوب، خصوصا في أهل المحبة والإشتياق، حتى قد مات له البعض في مجلسه،

ولم يخرج للخلق، ويشتغل بتذكيرهم حتى أمر بذلك، ويروى عنه أنه مكث في بيته نحو السنة لم يلق أحدا، ولم يخرج إلا للجمعة، فاجتمع الناس على باب داره وطلبوا منه أن يتكلم معهم، فلما ألزموه خرج وعند خروجه فرت بعض العصافير كانت على سطحه، فرجع من بعد خروجه، وقال: لو صلحت للحديث لم تفر مني الطيور. ثم مكث في بيته سنة أخرى، ولما خرج لم تفر منه، فأخذ يتكلم على الناس. وقيل أن الطيور كانت تحف بمجلسه، وقد كان يتساقط البعض ميتا.

وأما طريقته فكانت على أساس متين، فقد أخذ بالشرع وأمر به، ومن جملة حكمه قوله: **لاوصول إلى الله إلا من باب متابعة الرسول.** وقد انتفع به خلق كثير.

ومما يروى عنه أنه خرج من دائرته نحو ثلاثمائة عارف بالله دون الصالحين، وقد ذكر أبو عبد الله الفاسي الصغير في «المنح البرية» لدى كلامه على طريق الشيخ أبي مدين رضي الله عنه ما نصه: وخرج من دائرته ثلاثمائة قطب دون الصالحين. وكان يقول في مجلسه: **الشيخ من هذبك بأخلاقه، وأدبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه.** وقيل: أن رجلا دخل ليعترض عليه فجلس في الحلقة، فأخذ صاحب الدويلة في القراءة، فقال له الشيخ: أمهل قليلا. ثم التفت إلى الرجل وقال له: لم جئت؟ فقال له لأقتبس من نورك. فقال له الشيخ: وما الذي في كمك؟ قال له مصحف قرآن. فقال له افتحه، واقرأ في أول سطر يخرج لك ما تحتاج. فلما فتحه ونظر أول السطر، فإذا فيه: **الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين.** فقال له الشيخ: أما يكفيك هذا؟ فاعترف الرجل بذنبه وتاب وصلح

حاله، ولم يفارقه بعد ذلك، ودخل عليه بعض من تلامذته ذات يوم، وقد كانت زوجته أغاظته بالليل، ونوى فراقها، فلما رآه الشيخ قال له: **أمسك عليك زوجك واتق الله.** فقال الرجل: والله ما حدثت بها أحدا. فقال الشيخ رضي الله عنه: حين دخلت المسجد رأيت هذه الآية مكتوبة على برنوصك، فعلمت نيتك. ومن كرامته أيضا ما نقل عنه أنه كان رضي الله عنه يتكلم في الحقائق بعد صلاة الفجر في مسجد الخضر بمدينة الأندلس فسمع به رهبان دير يعرفون بدير الملك وكانوا سبعين نفرا، فجاء من أكابرهم عشرة بسبب الإمتحان، فتنكروا ولبسوا زي المسلمين، ودخلوا المسجد، وجلسوا مع الناس يستمعون، ولم يعلم إذ ذاك أحد بهم. فلما أراد الشيخ أن يتكلم سكت حتى دخل رجل خياط فقال له الشيخ: ما أبطأك؟ قال له يا سيدي حتى فرغت من العشرة الطواقي التي أوصيتني عليها البارحة، فأخذها الشيخ منه ونهض قائما، وألبس كل واحد من الرهبان طاقة، فتعجب الناس من ذلك، ولم يعلموا ما الخبر، ثم شرع الشيخ في الكلام فكان من جملة قوله: يافقراء إذا هبت نسمة التوفيق من جانب الحق تعالى على القلوب المشرقة، أطفأت كل النور، ثم تنفس الشيخ رضي الله عنه، فانطفأت قناديل المسجد كلها وكانت تفوق على الثلاثين. ثم سكت الشيخ وأطرق فلم يجسر أحد أن يتكلم لعظم هيبته، ثم رفع رأسه وقال: لا إله إلا الله، يافقراء، إذا أشرقت أنوار العناية على القلوب الميتة، عاشت وضاء لها كل ظلمة، ثم تنفس فاشتعلت القناديل، وعاد إليها نورها، وتطاربت وتمايلت حتى كاد أن يلحق بعضها ببعض. ثم تكلم الشيخ في آية سجدة فسجد وسجد الناس وسجد الرهبان مع الناس خشية الإفتضاح، فقال الشيخ في سجوده: اللهم

اللهم إنك اعلم بتدبير خلقك، ومصالح عبادك، وان هؤلاء الرهبان وافقوا المسلمين في لباسهم، والسجود لك، وإنا قد غيرنا ظواهرهم، ولن يقدر على تغيير بواطنهم غيرك، وقد أجلستهم على مائدة كرمك، فانقذهم من الشرك والطغيان، وأخرجهم من ظلام الكفر إلى نور الإيمان؛ فما رفع الرهبان رؤوسهم من السجود، إلا وقد مضى ما تقدم من الهجران وتخلصوا من الضلالة والطغيان، ثم تقدموا إلى الشيخ، وتابوا على يديه ببكاء وقلب حزين، فصرخ الناس وبكوا لبكائهم، وكان يوما مشهودا. وقد مات في ذلك المجلس ثلاثة أنفس، وبلغ أمرهم للملك، فأحسن إليهم وأكرم مثواهم، واشتد فرح الشيخ بذلك، وشكر الله على نعمه. وكان من دعائه رضي الله عنه: (اللهم إن العلم عندك وهو محجوب عني، ولا أعلم أمرا فأختاره لنفسي، فقد فوضت اليك امري، ورجوتك لفاقتي وفقري، فارشدني اللهم الى احب الامور إليك، وأرضاها عندك، وأهداها عاقبة فإنك تفعل ما تشاء بقدرتك إنك على كل شيء قدير)

وأما كلامه المنظوم فهو كثير من أن يحصى، إلا أني أذكر تبركا ما كان يواظب على إنشاده والترنم به، ولي نعمتنا الشيخ سيدي «محمد البوزيدي» كما ترنمت به أكثر العارفين، ودونت به الدواوين، وقد ظهر لي أنه أحسن ما وقع بصري عليه من كلام القوم، قوله رضي الله عنه

اللهَ قُلْ وَذَرِ الوُجودَ وَمَا حَوَى ☆ إِنْ كُنْتَ مُرْتَضًى بُلُوغَ الكَمَالِ

فَالكلُّ دُونَ الله إِنْ حَقَّقْتَهُ ☆ عَدَمٌ على التَّفْصِيلِ وَالإِجْمَالِ

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ وَالعَوَالِمَ كُلَّهَا ☆ لَوْلاَهُ فِي مَحْوٍ وَفِي اضْمِحْلاَلِ

مَنْ لاَ وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ ☆ فَوُجُودُهُ لَولاهُ عَيْنُ المُحَالِ

فالعارِفُونَ فَنَوْا وَلَمَّا يُشَاهِدُوا ☆ شَيْئاً سِوَى المُتَكَبِّرِ المُتَعَالِ

وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلى الحَقِيقَةِ هَالِكاً ☆ فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْإِسْتِقْبَالِ
فَالمَحْ بِطَرْفِكَ أَوْ عَقْلِكَ هَلْ تَرَى ☆ شَيئاً سِوَى فِعْلٍ مِنَ الأَفْعَال

ومن نسجه الرقيق أيضا رضي الله عنه:

طَابَتْ أَوْقَاتِي بِمَحْبُوبٍ لَنَا ☆ حُبُّهُ ذُخْرِي
نَرْغَبُ مَنْ لاَ لَنَا عَنْهُ الغِنَى ☆ فِي صَلاَحْ أَمْرِي
أَنَا هُو شَيْخُ الشَرَابِ سَاقِي المِلاَّحْ ☆ لَذَّ لِي التَّمْزِيقْ
ابْسُطُوا سَجَّادَتِي رَاحاً بِرَاحْ ☆ قَرِّبُوا الإبْرِيقْ
وَاحْمِلُوا تَعَرْبُدِي فِي الإِصْطِلاَحْ ☆ يَاذَوِي التحْقِيقْ
يَا أَنَا مَنْ هُو أَنَا حَتَى أَنَا ☆ هِمْتُ فِي سُكْرِي
سَمِّعُونِي طَيْبَ أَلْحَانِ الغِنَا ☆ فَعَسَى نَدْرِي
كَيْ نَفِيقْ يَافُقْرَا مِنْ سَكْرَتِي ☆ نَقِّرُوا فِي العُودْ
وَاحْمِلُونِي فَوْقَ نَعْشِ كَرْمَتِي ☆ عَاشِقٌ مَفْقُودْ
وَآجْعَلُوا من مَائِهَا فِي تُرْبَتِي ☆ وَاعْصِرُوا العُنْقُودْ
وَاجْعَلُوا أَوْرَاقَهَا لِي كَفَنَا ☆ مَاؤُهَا طُهْرِي
فَوْق أَوْ مِنْ تَحْت أَوْ عَنْ مَيْمَنَا ☆ احْفِرُوا قَبْرِي
بِعْتُ دَنْفَاسِي وَدَلْقِي وَالإِزَارْ ☆ وَبَقَيْتُ عُرْيَانْ
وَمَشَيْتُ بَيْنَ دَوْحَةِ الدِّيَارْ ☆ وَأَنَا نَشْوَانْ
بَيْنَ خُلاَّنٍ وَأَكْوَازٍ تُدَارْ ☆ تُسْحِرُ الأَذْهَانْ
لَيْسَ لِي أصلاً عن الشُّرْبِ غِنىً ☆ وَالهَوَى سُكْرِي
وَأَنْتُمْ يَا فُقَرَا يَا أُمَنَا ☆ اكْتُمُوا سِرِّي

وله أيضا مما يدل على وسعه في المعارف أكثر من أن يحصره كاتب، نظما ونثرا.

وبالجملة كان رضيَ الله عنه ممن كملت فيه المحاسن، فلا جرم أن شح الزمان بمثله، وما أحسن ما مدح به في هذه القصيدة وحقه أن يمدحه صاحب القصيدة ويستفرغ ما في وسعه، ولم يوف بحقه قال:

تبدت لنا ذوقا أعلام الهدى صدقا ☆ فصار بشمس الدين مغربنا شرقا
وأشرق منها كل ما كان آفلا ☆ وأصبح نور السعد قد ملأ الأفقا
سق الله من ماء المحبة وَابِلاً ☆ قلوبا به هامت فقل كيف لا تسق
لقد زهِدوا فيما سواه فأصبحت ☆ نفوسهم طرا تنادي الدنيا سحقا
لقد غرقوا في بحر حب إِلاَهِهِم ☆ فناهيك من بحر وناهيك من غرق
اذا ما سرت للسر أسرار شوقهم ☆ لسيدهم زادوا لرؤيته شوقا
قلوب سرت نحو الهدى بمعسكر ☆ فعادت سهام الحب ترشقها رشقا
وجاء من التوحيد جيش عرمرم ☆ فأفنى الذي يفنى وابق الذي يبق
هم القوم لا يشق بحق جليسهم ☆ وهل أحد يحظى بقربهم يشق
أبا مدين دانت لدينك عصبة ☆ فواليتهم حبا وأدنيتهم رفقا
لك الله ياشمسا أضاء بنورها ☆ من الدين ما قد كان أظلم أغسقا
سقيت قلوبا طالما عفاها الظما ☆ فامطرتها من ماء علم الهدى ودقا
فأحييت منها كل ما كان ميتا ☆ ورقيت منها كل ما كان لا يرقى
فاخرجتها من كل جهل وظلمة ☆ فمهما دجا ليل الحت له برقا
وادخلتها حصن التوكل فانتشت ☆ وأمسكها ذو العز بالعروة الوثق
شفيت بعلم يا شعيب قلوبنا ☆ فَإِسْمُكَ من شعب القلوب قد اشتقا
وقد كان سلطان الهوى قاد انفسا ☆ فأوسعها ذلا وصيرها رقا

فاعتقتهــا من رقـــة بتلطـــف ☆ جزيت خيرا حيث منحت الورى عتقا
إذا استبقـت بالعـارفين خيـوهم ☆ فخيلك بالتوحيد قد حازت السبقا
وإن ركبوا نحـو المعـارف مركبـا ☆ ركبت إليهـا في بحـار الهوى عشقـا
سموت بنـور الله عـن كل نـاظر ☆ فصرت ترى في الغيب ما لا ترى الزرقا
فـأنت إمـام العـارفين ونورهم ☆ ومنطقهم مهمـا أردت بهـم نطقـا
عليك سـلام الله مـا لاح كـوكب ☆ ومـا سبحت شجوا لسيدهـا ورقـا
وصل على المختـار مـن آل هـاشم ☆ كما جاء في الحق الذي أظهر الحـق

ولنتم الكلام على ما قدمناه قائلا: الحمد لله الذي جعل في كل مكان سادات، وفي كل زمان قادات،وذلك من نعمه على المخلوقات، ومن نفى الخصوصية في زمانه جهلا منه وغباوة، فكان ذلك دليلا على حرمانه، لما قيل في هذا المعنى:

ومـن نفى الخصـوص في زمانـه ☆ فـذاك مكر زيـد في خذلانـه
يخفيهم في خلقـه عـن خلقـه ☆ كـذالك فـاعلم من عظيم لطفـه
لأنهـــم عرائـــس الرحمـــان ☆ يحجبهم عـن كل ذى خـــذلان
ولا يصل لمثـل مـا في نعتـه ☆ إلا الـذي حبـاه لحضرتـه
إن لم تـلاق عارفـا في مـدتك ☆ لا عـاش عمـر عيشـه لعيشتك

ولنشرع في المقصود وبالله المستعان.

الفصل الأول
في النفس ومعالجتها

قال رضي الله عنه:

«مَنْ تَعَلَّقَ بِوَعْدِ الأَمَانِي لَمْ يُفَارِقِ التَّوَانِي»

الناس قسمان في وجود التواني: قسم يتأنى عن التلبس **بالطاعة**، وقسم يتأنى عن طلب الحق عز وجل، وذلك من عدم اشتياقه إليه، ولو اشتاق لله لاشتاق الله له، لقوله عليه الصلاة والسلام: **من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.** وفي بعض الأحاديث القدسية: **إذا تقرب إلي عبدي شبراً تقربت إليه ذراعا، وإذا أتاني عبدي ماشيا اتيته هرولة.** وقال أيضا: **أنا جليس من ذكرني، وحيث ما طلبني عبدي وجدني**، وهل هذا إلا محض الفضل، ومجرد النوال، كفى بك جهلا أيها المريد، تطلب من لا وجود له وتترك واجب الوجود، لو عرفت مابين يديك لرجعت عن غيك، الحق أقرب إليك من نفسك، **(وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداعي إذا دعان).**

ومن الحرمان أن يتصف المريد بالتواني في طلب الله، فهو كالمماطل، في كل يوم يقول غدا النهوض، وهكذا إلى أن يقضي العمرسبهللا .وما أحسن ماقيل في مثل هؤلاء:

رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم ☆ وخاضوابحارالحب دعوى فماابتلوا

فهم في السرى لم يبرحوامنمكانهم ☆ وما ظعنوا في السير عنه وقد كلوا

وعن مذهبي لما استحبوا العمى على ☆ الهدى حسدا من عند أنفسهم ضلوا

الحق تبارك وتعالى يشتاق إلى عبده أكثر من أن يشتاق العبد إليه، قال مولانا عبد القادر الجيلاني في مناجاته [قال لي الحق تبارك وتعالى نعم الطالب أنا، ونعم المطلوب الإنسان، ولو علم الإنسان منزلته عندي لقال في كل نفس من الأنفاس: لمن الملك اليوم الخ.]

وعليه فما منعنا عن الوصول إلا التواني، ومن الناس من يتأنى عن التلبس بالطاعة كما تقدم، ويظهر له أن ذلك من موافقته للقدر، بل إنما هو من موافقته لهوى نفسه، ألا ترى لو تبين له حظ من الحظوظ الدنيوية لنهض له بكل النهوض، وقال إن الرزق مكتوب، والسبب مطلوب، وفي طلب الحق لا يتسبب، وبطاعته لا يتقرب، وللمنية لا يترقب، كأنه في أمان، والحق **فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون** إن قلت له اتق الله، يقول الحق غفار، صدقت. أولم تعلم أنه رزاق؟ فلم تتسبب في جلب الرزق بكل الوجوه، ولا تتسبب فيما يوجب المغفرة ولو بوجه ما، أما كونك تعمل بعمل أهل النار وترجو الجنة فهذا بعيد. **ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها** أشفق على نفسك، فإنك لا تطيق ما أنت بصدده، قيل في هذا المعنى:

فيا عاملا للنار جسمك لين * فجرب تمرينا بحر الظهيرة
وجربه في لسع الزنابير ثم زد * على نهش حيات هناك عظيمة
فإن كنت لا تقوى فويلك ما الذي * دعاك على اسخاط رب البريئة
تبارزه بالجهل كل عشية * وتصبح في أثواب نسك وعفة
فأنت عليه أجرأ عن كل الورى * بما فيك من جهل وخبث طوية

تقول مع العصيان ربي غافر * صدقت، ولكن غافر بالمشيئة
وربك رزاق كما هو غافر * فلم لم تصدق فيهما بالسوية
فإنك ترجو العفو من غير توبة * ولست ترجو رزقك إلا بحيلة
على أنه بالرزق كفل نفسه * ولم يتكفل للأنام بجنة
فلِمَ ترضى إلا السّعي فيما كفيته * واهمال ما كلفت به من وظيفة
تسيء به ظنا وتحسن تارة * على حسب الهوى في كل القضية

فهذا حال من قطعت الأماني ظهره، في الغالب يكتفي بما هو عليه من القطيعة والبعاد، وكل ذلك من قلة محبته في الله، فيا عجبا كيف يرضى العبد بالقطيعة وسدل الحجاب، ولو عرف منزلته عند ربه لما وقف دون غيره، قيل في هذا المعنى:

أيا بعدهم عنها ويا بئس ما رضوا * فقصدهم قصد وسيرهم وزر

اللهم أحي قلوبنا، وانهض بنا إليك، فإنه لا نهوض لنا إلا بك، ولا مطلب لنا إلا فيك.

ثم قال رضي الله عنه:

«الأُسَارَى: أَسِيرُ نَفْسٍ، وَأَسِيرُ شَهْوَةٍ، وَأَسِيرُ هَوىً.»

ذكر أن الأسارى على أقسام ثلاثة وهم المقيدون الأرقة لوجود الغير، منهم **أسير النفس،** وهو أحقر الأسارى، لأن الحاكم عليه جائر لا يعفو

فلْيَبْكِ أسير النفس عما حل به * وهل ينفع البكاء بدون النجاة

فمن كان أسيرا لنفسه يحتمل كل الطواري تطرأ عليه، لأن أشرارها لا تتناهى، فهي زائدة بصاحبها إلى ما لا نهاية له، ومن نعتها طلب الإستقلال، والخروج عن حكم الألوهية، فهي تسعى في سلطة ذلك من كل الوجوه، حتى إذا عدمته من وجهة، فلا تسمح فيه من بقية الوجوه. قال عليه الصلاة والسلام: **ربي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين.**

ألا ترى أن النفس قبل أن تدخل في الإسلام، تنكر وجود الألوهية رأسا، حتى إذا انقادت وتحملت ثقل الإقرار بالألوهية، قد تنكر سلطة الربوبية عليها، ولا تخضع لذلك إلا بتمهيد وتدريب، وإذا مالت وثبتت ونبتت في العمل، لا تسمح بترك الجزاء عليه، بل تقول أنا الفاعلة لذلك، ولا بد من الجزاء، وإذا كابدتها وهذبتها على تركه بقولك: أين الإخلاص؟ قد تسمح في الجزاء، ولكن لا تقطع النظر من كونها هي الفاعلة لذلك، حتى إذا قلت لها: أين التوحيد؟ وأين فهمك من قوله تعالى: **والله خلقكم وما تعملون** فتسمح في العلل، ولا تسمح في الوجود، بل تقول أنا موجودة، ولو لم يبق لها إلا مجرد الصورة فتتعلق بها وتتعشق، ولا تسمح بانعدامها، وإذا أنعم الله عليها بفنائها، وتجلى عليها تجليا يوجب اضمحلالها وتلاشيها ومحوها من لوحة الوجود، فتستريح حينئذ من دعوى الوجود، لأن الحق يقوم بدلها، ولكن بعد الرجوع لا تلبث أن تقول: الآن صار قولي بالله، أقول ولا فخر، ولو لم يبق لها إلا اللسان. وحاصل الأمر، أن أشرار النفس أكثر من أن تحصى، وقد صنفت فيها تصانيف، حفظنا الله من شرها.

وأما **أسير الشهوات:** فهو أسير فرع من فروعها، وليس هو كالأسير الأول، بل تميل الشهوة به إلى الطاعة، إذا وجد فيها شهوة فهو يقصدها حيث وجدها، بقطع النظر عن كونها طاعة أو معصية، والواقف مع شهواته في الغالب يسقط من عين ربه، فهو مطلوب بالخروج من هذا الوصف، والمخالفة لمعتاده، ولا يرضى بالرقية إلا جهول. قيل في هذا المعنى:

إذا طالبتك النفس يوما بشهوة ☆ وكان إليها للخلاف طريق
فدعها وخالف من هوت فإنما ☆ هواك عدو والخلاف صديق
والعز كله في مخالفة الهوى ☆ وقد ذل من كان إليه رفيق

وقال غيره:

من كان ذا شهوة حظه ما يشتهي ☆ منزلته تبدو في قصد تَنَبُّهِ
فهو ضعيف الحزم فاني في بطنه ☆ فهمته تسمو بقدر مقامه

وحاصل الأمر، ينبغي للمريد أن يترك شهواته، خصوصا إذا عقد عقدة مع الله على ترك شهوة من شهواته، فلا ينبغي له أن ينقض ما عاهد الله عليه وإلا يعاقب ظاهرا أو باطنا.

قال بعضهم رحمة الله عليه: قد عقدت مع الله عقدة في سري أن لا أقصد شيئا بشهوتي، وإذا بذات يوم كنت في البادية حتى خطر لي في قلبي محبة نوع من الطبخ يقال له الطباهج، وتمكن ذلك في قلبي حتى لم أقدر أن أتحرك، وصرت أتشوف للقرى أيها أقرب أقصدها لعلي أجد فيها من ذلك الطبخ، وصرت مضطرا إليها إضطرارا كليا، فدخلت إلى قرية كانت تقرب من ذلك الموضع، وأنا أتشوف يمينا وشمالا، حتى

طلبت من بعض الناس، فقالوا: ها هو وامسكوني وكان لص في تلك القرية يقطع الطريق، فشبهوني به فأخذوني، وكلما أقول: لست أنا يضربونني، فعلمت أن ذلك أصابني بسبب نقضي للعهد، وميلي إلى شهوتي، فسكنت وبقيت منتظرا حتى قدم كبير لهم، فحكم علي بأربعين جلدة، فطرحوني إلى الأرض وأخذوا في ضربي، ولما فرغوا من ذلك، أتى إنسان يعرفني. فقال لهم: ويحكم إن هذا ليس بلص، والله إنه ولي الله، وصار يعتذر علي وأنا لا أقدر على الكلام بما أصابني، فأخذني إلى محله وفرش لي، وأجلسني وأخذ في الأدب معي، ووضع آنية من ذلك الطبخ نفسه، فقلت لنفسي: كلي الطباهج بعد الأربعين جلدة، فأبت وأخذت في البكاء على ما أصابني بسبب مناقضتي العهود.

اياك يا أخي والميلان عما أعرضت، فإن الرجال: "رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه."

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ☆ حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فهذا أسير الشهوة، وأما **أسير الهوى:** فهو أسير فرع من فروع النفس، وأثر من آثارها، وصاحب هذا المقام تراه يميل مع الهوى حيث مال، ليس له منوال، سريع التقلب في الأفعال والأحكام، متخذا إلهه هواه، يتبعه كيفما اعتراه، **أرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم.**

يخشى عليه في الغالب أن يأخذه الله نكالا، وهو لا يشعر. لما أصابه من نشوة الهوى.

أسير الهـوى سال معجب بحالـه ☆ ولم يدر ما به من البعد والهجر

وقال غيره

ولا تتبـع النفــس في هواهــا ☆ فــإن اتبـــاع الهوى هـــوان

وقال آخر

إن الهوى هــو الهــوان بعينـــه ☆ فـإذا هويت قـدَ لقيت هوانـا

فـإذا هويت قـد تعبـدك الهوى ☆ فاخضع لحبك كائنـا مـا كانـا

وربما كان صاحب الهوى يتصرف في الشرع بهوى نفسه، بدون أن يلاحظ ما وجب عليه، حتى يزجه لجة لا نجاة له منها، إلا إذا تداركه الله بلطفه، وأنقذه من هوى نفسه، وأوقفه عند ما وجب عليه، وإلا لا يومن عليه لقوله عليه الصلاة والسلام: **لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به.**

ثم قال رضي الله عنه:

«مَا وَصَلَ إِلَى صَرِيحِ الحُرِيَةِ مَنْ عَلَى نَفْسِهِ بَقِيّةٌ»

وجود النفس مع الحرية ضدان لا يجتمعان، والقليل من وجود النفس كثير، فهو سواد في بياض، بقيتها سم قاتل، وداء مهلك عضال، فكلما غفل الإنسان عليها رجعت لعادتها، والحرية لا تصح للعارف إلا بعد تخلصه من شرها، فتصير تابعة لا متبوعة، لقوله عليه الصلاة والسلام: لايؤمن أحدكم الخ الحديث. وهذا معيار صحيح لحرية الشخص من رقية نفسه.

ثم اعلم أن النفس لها حرية في نفسها قبل دخولها في هذا الهيكل الجسماني، ولما سكنت الطبيعة، واستقلت بتدبير هذا الهيكل الجسماني، استولت على الجوارح، وادعت الإستقلال الكلي، وصارت تتصرف في الكواسب الظاهرة والباطنة بما تشتهيه لنفسها، دون أن تلاحظ مرضاة الله، فصارت النسبة الإنسانية التي هي مأخوذة من جسم وروح في تشويش، ومعيشة ضنكا، حيث علمت أن النفس فسقت عن أمر ربها، وانها انفردت بسلطانها، فبقيت تلك النسبة متحيزة، خصوصا لما تعلم من سطوة النفس وقوة سلطانها، ونعت استبدادها، وإذا بالأمر نزل من رب العالمين بمخالفتها ومحاربتها، **وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها.** ونادى لسان حال النسبة الإنسانية:

ألا فالنفس مالت لتدبير نفسها ☆ فسقت عن أمر الرب نقضت عهودها

ثم أخذت كل حقيقة تميل لحقيقتها، وقالوا: **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض.** فقامت رؤساء اجناد الهيكل الجسماني، كالعقل وأعوانه، إغارة على النسبة الإنسانية أن تستولي عليها تلك الباغية، ونزل الأمر من الله **فإن بغت إحداها على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله.** ووعدهم الله بالنصر مهما خرجوا عن طاعتها، فانقسم ملك الإنسان في نفسه، وصار واحدا في اثنين، وتباين الندان، وصار كل يميل لمقتضاه، ومن أجل هذا كان الإنسان لا يأمن وجود النفس، ما دامت لها بقية، إلا إذا رجعت إلى ربها راضية مرضية.

ثم قال رضي الله عنه:

«بِالمُحَاسَبَةِ يَصِلُ العَبْدُ إِلَى دَرَجَةِ المُرَاقَبَةِ»

المحاسبة أول درجة السائرين، وبها يصل العبد إلى مقام المقربين، ومعناها عدم استرسال النفس في ميادين المخالفة، لأن المحاسبة تعوق النفس عن الانهماك الكلي، فإذا تمكن العبد في هذه الرتبة ودام عليها يصل إلى درجة المراقبة، لأن المحاسبة تكون مع الغفلة، فإذا حضرت المراقبة، وهي كناية عن شهود الحق من وراء حجاب، مع عدم الإدراك، أو تقول استحضار علم الله بالعبيد، واستشعار إحاطة البصر بكل موجود، فصاحب هذا المقام على كل حال في هيبة وأدب، خارج عن المحاسبة، لأنها تكون بعد الوقوع، والمراقبة تمنع العبد من الوقوع في المخالفة، لما هو عليه من استشعار مطالعة الله عليه في سائر أحواله، وإذا دام العبد على هذه الحالة في الغالب تصير له مشاهدة. **ومن يتق الله يجعل له مخرجا**، أي فمن يتق الله من وراء حجاب، ويخشاه بالغيب، يجعل له مخرجا من سجن الكون، إلى شهود المكون، لصلاحيته لذلك الشأن، **فمحاسبة، ثم مراقبة، ثم مشاهدة.** فهذا مجموع الدين: **إسلام، وإيمان، وإحسان.**

وسئل بعضهم في هذا المعنى: ما الإسلام؟ وما الإيمان؟ وما الإحسان؟ فقال: الإسلام أن تعبد الله، والإيمان أن تحضره وتخشاه، والإحسان أن تشاهده وتراه. فأهل المشاهدة لا تتمكن منهم

المخالفة ما داموا في الحضور. قال بعضهم:

ماإن قصدت فعلا وجدتك شاهدي ☆ فأترك ما قصدت وأرق للشهود
فإن شهود الحق يعصم عبده ☆ ولولا المراقبة ما قامت الحدود

وهكذا بلوغ الغاية لا يكون إلا بعد تصحيح البداية، وهي المحاسبة كما تقدم. كان بعضهم رحمة الله عليه يحاسب نفسه على الكلام الصادر منه، فإذا وجد كلمة خير شكر الله عليها، وإذا وجد كلمة فيها غير لام نفسه، وعاهد الله أن لا يعود لمثلها.

ثم قال رضي الله عنه:

«عُمُرُكَ نَفَسٌ وَاحِدٌ فَاحْرِصْ أَنْ يَكُونَ لَكَ لاَ عَلَيْكَ»

العمر كله نفس واحد لأنه محدود، وأيام معدودة، وليس للإنسان فيها إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، بقية الحياة هي البقية الصالحة، فلك أن تصلح بها ما فسد، وتكون أنت صالحا بوجودها، وهل للإنسان أعز من عمره، ولو يعلم الإنسان قدر حياته لما بذرها، وقد مضى منها الأكثر، فاحرص أيها المريد على ما تبقى منها، لتكون لك لا عليك، ولهذا يقال: بقية عمر الإنسان، ما لها ثمن، يستدرك بها ما فات، ويصلح ما هو آت بتوفيق الله له، إن رجع لله واضطر للوصول، فإن الله يجيب المضطر إذا دعاه، فأحذر أيها المريد أن تصرف نفَسَك العزيزة التي كل نَفَس منها يساوي ملء الأرض ذهبا. قال في الحكم العطائية: ما فات من عمرك لا عوض له، وما حصل لك منه لا قيمة له.

وقيل فى هذا المعنى:

بقية العمر عندي ما لها قيمة ☆ وان غدا غير محبوب من الزمان
يستدرك المرء فيها كل فائتة ☆ من الزمان ويمحو السوء بالاحسان

وما احسن قول الشيخ اسمٰعيل بن المقري في هذا المعنى رضي الله عنه:

إلى كم تمادى في غرور وغفلة ☆ وعمرها كذا نوم إلى غير يقظة
لقد ضاع عمر ساعة منه تشترى ☆ بملء السما والأرض أية ضيعة
أتنفق هذا في هوى هذه التي ☆ أبى الله أن تساوي جناح بعوضة
أترضى من العيش الرغيد تعيشه ☆ مع الملأ الأعلى بعيش البهيمة
فيا درة بين المزابل القيت ☆ وجوهرة بيعت بأبخس قيمة
أفان بباق تشتريه سفاهة ☆ وسخطا برضوان ونارا بجنة
أأنت صديق أم عدو لنفسه ☆ فإنك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الأعداء بنفسك بعض ما ☆ فعلت لمستهم لها بعض رحمة
لقد بعتها هونا عليك رخيصة ☆ وكانت بهذا منك غير حقيقة
فويلك لا تفضحنها بمشهد ☆ من الخلق إن كنت ابن أم كريمة
بين يديها موقف وصحيفة ☆ يعد عليها كل مثقال ذرة
كلفت بها دنيا كثيرا غرورها ☆ تقابلنا بنصحها بالخديعة

وإذا علمت هذا كيف تصرف أخي عمرك العزيز في الغفلة والمخالفة! وهل لك حياة غير هذه، حتى تستدرك فيها ما فات؟ كلا، ثم كلا! فما لك إلا هذا الوقت وقد قطعك، وذهب أغلبه، وزهدت فيه بدون أسف عليه، ألا ترى لو أعطي إليك مال عظيم، وقيل لك هذا رزقك لا يزداد عليه شيء، فإذا قضيته انقضى

أجلك، ففي الغالب لا تبذره، بل يصير الفلس عندك يتجزأ على أجزاء، ولا تصرفه إلا فيما لا غناء لك عنه، او ليس الحياة كذلك؟ فهي محدودة، وما من نفَس يمر لم تدرك له خبرا، إلا يخلفك وراءه، ويسبقك لآخرتك محشوا بما فيه، ويوم القيامة يتلى عليك بما فيه، إما لك، وإما عليك.

فاحرص بارك الله فيك أن يكون لك، واحذر فيما أنت عليه، واعلم أن كل فعل أنت مجزي به، وكل وقت مسئول عليه، واتبع أثر السلف في سيرتهم، فإنهم كانوا يحاسبون النفس على الأنفاس، ويزينون الخاطر بالقسطاس.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه ما يناسب هذه المعنى: استفدت من الصوفية كلمتين، قولهم: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، وقولهم أيضا: اشغل نفسك بالخير، إن لم تشغلها بالخير، شغلتك بضده، واحرص بارك الله فيك على الوقت ولا تبذره تبذيرا، **إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين.** وقف على باب قلبك لكي تتجلى فيه أنوار ربك، لأن القلب له وجهة واحدة.

ثم قال رضي الله عنه:

«لَا تَعْمَ عَنْ نُقْصَانِ نَفْسِكَ فَتَطْغَى»

إن الإنسان إذا لم يبال بنقصان عمره، وتغفل عن مرور الليالي والانفاس المعدودة عليه، لا شك يطغى حتى يأخذه الله أخذا وبيلا، وهو لا يشعر، فهو مستدرج للآخرة شيئا فشيئا بدون أن

يحس بنفسه. **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: **أكثروا من ذكر هادم اللذات**، وهو الموت، فإن الإنسان إذا شعر بنقصان الأنفاس، وكان بصيرا بضعف الحواس، فلا جرم يشتغل بما يعنيه، لأنه في سير إلى الآخرة، يأخذ من دنياه إلى أخراه، ومن صحته إلى موته، ومن عمي عن ذلك تراه كأنه لم ينقص له شيء من حياته، مع أن عمره أعز عليه من كل عزيز، وقد مر أكثره وهو لا يشعر، ولا ينتبه ولا يتزود للرحيل، «**فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**». وقيل في هذل المعنى:

يابالیا وهو لا يـــعالي ☆ وهـو في ميدانـه يجـول
تصرف من عمرك الليالي ☆ كسرقـة الـراح للعقـول
بالعزم قد سارت الركائب ☆ ولا تجهـــزت للسفـــر
ولسـت تخشى ولا تراقـب ☆ في يـوم تبلى فيـه العبر

ثم قال رضي الله عنه:

«مَنْ نَسَبَ لِنَفْسِه حَالاً أَوْ مَقَاماً فَهُوَ بَعِيدٌ عَنْ طُرُقَاتِ المَعَارِفِ»

العارف لا ينسب لنفسه حالا ولا مقاما، لفنائه عن المقامات والدرجات والأحوال، مالكة لأهل البداية، مملوكة لأهل النهاية، والعارف غني بالله، وقيل: إن العارف من قامت به المعارف، لا من قام هو بها، فهي تولت أمره، وحاله ينبىء عليه بدون أن ينسب شيئا لنفسه، مشتغلا بتصحيح أحواله مع الله، قاطع النظر عن

الخلق، لا يتصنع لأحد، تاركا الحق ينوب عنه في شؤونه، ومن قام بمقام أو حال، فذلك ليس من نسبته لنفسه لأن النفس ذهبت مع الذاهبين. قيل فى هذا المعنى:

خلفت أهلي ونفسي حقا تركتها ☆ وكنت لنور الحق بالحق سارع

وكل ما برز عن ألسنة العارفين، من نسبة الأحوال والمقامات تصريحا أو تلويحا، راجعا للحق لا لأنفسهم، والله مطّلع على أسرارهم، ولو نسبوا شيئا من ذلك لأنفسهم لسقطوا من عين الله، وحاشهم من ذلك. فلهذا كان العارف يقول ولا يبالي بما يقول، لأنه يتكلم على لسان الحق لا على لسانه، ومعرب عن ذات الحق لا عن ذاته. قال بعضهم رحمة الله عليه:

إن قلت كن فيكون امر بأمر الواحدا ☆ لسان هو بصري هو يدي هو المفردا
سمعي هو في قلبي هو روحي هو أبدا ☆ لا حول لي ولا قوة إلا به الصمدا

و قال غيره:

إن شئت شاء وإن أمرت فأمره ☆ ماذا يصنع حاسدي ومعاندي

وأما سواهم من المحجوبين فهو مرتهن في كلامه، فلا تقس نفسك عليهم يا من لا تدري مقامهم، تلك حدود الله. وحاصل الأمر أن العارف لا ينسب شيئا لنفسه لغيبته عنها كما تقدم.

ثم قال رضي الله عنه:

«أَنْصِفِ النَاسَ منْ نَفْسِكَ وَاقْبَلِ النَصِيحَةَ مِمَّنْ هُوَ دُونَكَ تُدْرِكْ أَشْرَفَ المَنَازِلِ»

من لم ينصف الناس من نفسه، لم يصدق في عبوديته لله عز وجل. لأن الخلق عيال الحق، ويكون ذلك دليلا على انقطاعه عن الله، إذ لو كان حاضرا معه لكان يترك من حقه، فضلا على أن ينصف من نفسه، لأنه يسمع رقيبا من الحق يقول: **كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** فلهذا أمر المصنف المريد أن ينصف من نفسه، ويقبل النصيحة ممن هو أدنى منه، ليدرك أشرف المنازل، وقوله: اقبل **النصيحة** ممن هو دنوك. هذا تعبير في اللفظ، وأما في الحقيقة لا ينبغي للمريد أن يرى ما دون منه في الوجود، بل يقبل النصيحة من كل ناصح له، ويرى أن له حقا عليه، ولو من وجهة إذا لم يطق أن يراه من كل الوجوه، وبهذا يصل إلى أرفع المنازل، لأن السائر إلى الله لا ينبغي له أن يسمع إلا من الله، إن أمكنه، كما هي حالة المتوجهين، وبهذه المثابة يمكنه أن يقبل النصيحة من كل ناصح، روي أن بعض الأيمة دخل المسجد في وقت النهي عن النافلة، فقال له صبي هناك: اركع أيها الشيخ! فركع. فقيل له في ذلك، فقال: خشيت أن يصدق علي قوله تعالى: **وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون.**

فمثل هؤلاء لا يمكنهم إلا الإنصات من كل مذكر، وقيل: أن بعض المشايخ تلقاه صبيان في الطريق، فشبهوه بيهودي، وقال أحدهم: أسلم يا يهودي. فقال: أسلمت لرب العالمين، ففرحوا بذلك وصاروا

يطوفون به في الطريق، وعند كل مكان، يقولون له: أسلم. فيقول: أسلمت. ثم يقولون له قل: أشهد أن لا إله إلا الله، فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله. فيزداد فرحهم، وهكذا إلى أن طالت عليهم الطريق فحملوه على حمار، وأخذوا في طوافه، حتى تلقاه بعض من يعرفه. فقال: ما هذا؟ وأخذ يزجر الصبيان، ويفرق جمعهم. فقال له الشيخ رضي الله عنه: لا تنهرهم، فوالله لم يأذوني بشيء، بل أحسنوا إلي، كنت غافلا فذكروني، وكنت تعبا فأركبوني، وإني في نعمة لم أر مثلها. وقيل: إن الخير النساج رضي الله عنه، لم يكن إسمه كذلك؛ فذات يوم كان في البيداء فتلقاه أقوام لم يعرفهم فقبضوا عليه، وقالوا له: يا عبد السوء، تهرب من مولاك، وكان يفهم عن الله، فقال تبت، فقيل له: أترجع لمولاك؟ فقال نعم إن قبلني. فقلوا له: نتوسط لك في ذلك. فقال: جزاكم الله عنا خيرا، فأخذوه، وكان بعض النساجين هرب له مملوك فظهرت صفاته في ذلك الولي، فلما وصلوا به إلى النساج، قالوا له: ادخل على مولاك، وإياك والخروج عن طاعته، قال: **فإن عدنا فإنا ظالمون،** فشفعوا فيه عند النساج حتى لا يعذبه، وبقي في خدمة سيده، إلى أن زال ذلك الشبه من وجهه، وتم ما قدر عليه. ومثل ذلك من حكايات القوم كثير، ومن لم يصل إلى هذه الرتبة، فينبغي له على كل حال أن يقبل النصيحة، ولو ممن هو أدنى منه، ولا أدنى في التحقيق لأن العاقبة مجهولة. قيل في رائية الشريشي رحمة الله عليه:

ولا ترين في الأرض دونك مومنا ☆ ولا كافرا حتى تغيب في القبر
فإن ختام الأمر عنك مغيب ☆ ومن ليس ذا خسر يخاف من المكر

ومن اتصف بضد ما ذكرنا لم تسر فيه الموعظة البتة، لرؤيته لنفسه أنه له حق على غيره، فلا يتمكن له أن يقبل النصيحة ممن يساويه في المقام، فضلا عن أن يسمعها ممن هو أدنى منه.

ثم قال رضي الله عنه:

«مَنْ تَحَقَّقَ بِالعُبُودِيَّةِ نَظَرَ أَفْعَالَهُ بِعَيْنِ الرِّيَاءِ وَأَحْوَالَهُ بِعَيْنِ الدَّعْوَى، وَأَقْوَالَهُ بِعَيْنِ الإِفْتِرَاءِ»

العبودية مقام شريف، ومن تحقق بها رجع على نفسه باللوم، واتهمها في أعمالها وأحوالها وأقوالها، وكانت عنده **وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها.** ولهذا قال: ينظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الإفتراء، فإن النفس وإن عدلت كل العدل، لا تخلو أن تنسب شيئا من الفعل إليها، وفي ذلك دعوى وافتراء، ولا يخفى ما فيه من المناقضة للعبودية، والتجاسر على الملك الحق. قال تعالى: **والله خلقكم وما تعملون.** وكفاك من الإحسان أيها العبد أن جعلك أهلا لذلك الشأن، فارجع على نفسك وارجمها في دعواها، وإياك والركون لما تحدثك به، فالعبودية لا تكون خالصة حتى تطهر من الدعاوي والرياء والإفتراء، وهو مقام شريف فمن حققه لا يطلب سواه.

قال في الحكم العطائية: مطلب العارفين من ربهم الصدق في العبودية، والقيام بحقوق الربوبية، ولا مقام عندهم أشرف من العبودية

فمن حصل عليه فقد حصل على المنة العظيمة، لما قيل: متى جعلك في الظاهر ممتثلا لأمره، ورزقك في الباطن الإستسلام لقهره، فقد أعظم عليك المنة. وهذه حقيقة الإستقامة الممدوحين أهلها في قوله تعالى: **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا،** أي الذين تحققوا بوحدانية الإله كشفا وعيانا، ثم استقاموا على ظاهر الشرع، فكانت لهم كرامة عظيمة، وفي هذا المعنى يقال: قراط من الإستقامة خير من ألف كرامة، لأن الكرامة بلا استقامة إنما هي استدراج، أو نقول إهانة، ولما كان المقام شريفا، ولا بد من الحرص والمحافظة عليه.

قال رضي الله عنه:

«مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ لَمْ يَغْتَرّ بِثَنَاءِ النَاسِ عَلَيْهِ»

أي من عرف نفسه بما فيها من العيوب، لم يغتر بثناء الناس عليه، فلا يترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس، **بل الإنسان على نفسه بصيرة.**

قال في الحكم العطائية: أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس. أخذ بعض المريدين في مدح أستاذه، فبكى الأستاذ وقال: أنا أعرف بنفسي منك. هذا حال أرباب الإنصاف، لا يغترون بثناء الناس عليهم لما يرونه من أنفسهم، وأما الجاهل المغتر في الغالب يستأنس بالثناء عليه، فيا للعجب وهو يرى في نفسه من المعاصي ما لا يراه الغير منه، وقد شبه الحارث

المحاسبي: الراضي بالمدح كالراضي بالباطل، ممن يهزأ به ويقول له: إن العَذِرَة التي تخرج من جوفك لها رائحة كرائحة المسك، وهو يفرح بذلك ويرضى بالسخرية. قال ابن عباد:«ولا شك أن الذنوب والعيوب التي يعلمها العبد من نفسه، أنتن وأقذر من العذرة التي تخرج من جوفه، ولا فرق بين الحالتين».إلا أنه في حال المدح يعلم أن المادح لم يشاركه في معرفة ذنوبه، وعيوبه مشاركة ذلك المستهزىء للمستهزأ به، ولا يتصور هذا إلا فيمن لا قيمة له عند الله، ولو كان له أدنى اعتبار لرجع عن نفسه وانتبه من غيه، وكيف لا وهو يرى نفسه منهمكة في ميادين المخالفة وينصت لمن لا خبر له به، ولو اطلع على حاله لما صحبه فضلا على أن يثني عليه، اللهم إلا من طريق الإستهزاء. ثم اعلم أن معرفة النفس هي أساس المعرفة بالله ابتداء وانتهاء ففي حالة الإبتداء تعرف بالنقائص فيعطيها مستحقها كما يعطى مستحق الألوهية من الكمالات ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: **من عرف نفسه فقد عرف ربه** وقد قال أيضا: **أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه.** إذ كلما ازداد الإنسان معرفة بنفسه ازداد معرفة بربه لانطوائها على كل خير وغير، وقد قيل في هذا المعنى:

داؤك فيك ولم تبصر ★ ودواؤك منك ولم تشعر

وتحسب أنك جرم صغير ★ وفيك انطوى العالم الأكبر

حتى إذا طهرت النفس من المساوي واتصفت بالكمالات فلا ينبغي للعارف أن يكتفي من معرفة نفسه، بل لازال يبحث عن باطن قوله عليه الصلاة والسلام: من عرف نفسه الخ الحديث.

إن هناك سرا **خفيا** فلايزال العارف يبحث عن ذلك مستحضرا قرب الله عز وجل منه حتى يجده أقرب إليه من نفسه، لأن النفس عملها كعمل الكافر **يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه** ولو التفت إلى الخارج عن نفسه لضل عن السبيل واختلط عليه النهار بالليل، ولكنهم وقفوا رضي الله عنهم عند أنفسهم وبحثوا عن قرب الله منهم فوجدوه عند فقدانهم.

قال مولانا العربي الدرقاوي رضي الله عنه لبعض تلامذته كان يريد معرفة الله: اطرح كتابك واحفر في أرض نفسك حتى يخرج لك الينبوع وإلا فاذهب عني، فعند ذلك حصل على ما يريد، والعاقل لا يخفى عليه أن الله تبارك وتعالى أقرب إليه من نفسه، وإذا كان كذلك فهل العرش يوجد فيه من القرب ما ليس في الإنسان؟ كلا، إنما هو أقرب إليه من حبل الوريد فحاشا لله أن يكون متقربا بذاته لشيء أو متباعدا عن شيء، وإنما قربه لكل شيء ولا يخلو منه كل شيء، وإن كان كذلك **فلماذا** ترفع رأسك أيها السائر إلى الخارج ألم تسمع قوله تعالى: **سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**، فارجع لذاتك واعتبر فإن لك فيها ما يغنيك. قلت لبعض المحبين:

دور في ذاتـك وافهـم صفـاتك ☆ روحك دعاتك لك فيها سر عجيب
الخمـرة العتيقـة المعنى الرقيقـة ☆ نفس الحقيقة تبدو لك من القليب
منك وإنـك تحظـى بغينـك ☆ إنها عينك لا شك فيها ولا ريب
مـاذا يخفـاك سر حـواك ☆ فافهم معناك مالك عنك من حجيب

وقد قيل أيضا:

ياتائها في مهمه عن سره ☆ انظر تجد فيك الوجود بأسره
أنت الكمال طريقة وحقيقة ☆ ياجامعا سر الإله بإسره

ولم يشعر أحد بنفسه

ياطالب الحقيقة ☆ اسمع لي ما أقول
منك هي الطريقة ☆ ولك الوصول

وقال الأستاذ سيدي محمد البوزيدي قدس الله سره لبعض تلامذته:

لقد حاط بك السر من كل جانب ☆ فلو كنت تدري كم عمتك المنافع
آنيتك كنز لأسرار ربك ☆ وشبحك مُحتَوًى زَنَتْهُ الودائع
ما في الوجود فيك من العرش والثرى ☆ وفيك ما قد مضى والذي مضارع
فروحك هي القصد في نفسك المنى ☆ والشكل هو الحجاب للسر جامع

ترادفت إشارة القوم، وكلها راجعة لمعرفة النفس تعضيدا لقوله عليه الصلاة والسلام: من عرف نفسه الخ.

قلت: ما كثرت مساوي النفس إلا لكونها حاملة لأسرار الحق **ومن نعمره ننكسه في الخلق**، وليس الشأن أن تترك نفسك أيها المريد وتعاديها، إنما الشأن أن تصحبها وتنفرد بها لكي تخبرك عما احتوت عليه.

قال المجذوب شيخ مشايخ هذه الطائفة رحمة الله عليه في هذا المعنى:

سَايَسْ مِن النَّفْسِ جُهْدَكْ ☆ صَبَّحْ وَمَسِّ عْلِيهَا
لَعلها تْطِيحْ في يدَكْ ☆ تْعُودْ تَصْطَادْ بِهَا

اللهم عرفنا بانفسنا واكفنا من شرها انك سميع الدعاء.

ثم قال رضي الله عنه:

«آفاتُ الخَلْقِ سُوءُ الظَّنِّ»

أي آفات الخلق وسبب قطيعتهم سوء ظنهم بالله وبالخلق إذ لو أحسنوا الظن في العباد وخصوصا أولياء الله الصالحين لوجدوا من يأخذ بيدهم وينقذهم من غفلتهم وما هم عليه من قيد النفوس.

وأما سوء الظن بالله والعياذ بالله فهو مما يوجب طرد العبد من باب مولاه لقوله عز من قائل في بعض كلامه القدسي: **أنا عند ظن عبدي بي، فليظن عبدي بي ما يشاء**، فمن لا يظن به خيرا فلا يجازيه إلا بظنه **ذالكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين.**

فعليك أيها المريد بحسن الظن، فإنه من أشرف الخصال لما يروى في الخبر: خصلتان ليس فوقهما في الخير خصلة: حسن الظن بالله وحسن الظن بعباد الله، والعكس بالعكس، وإن كان ولا بد أن تسوء الظن فسؤه بنفسك واتهمها في معاملتها ولا تقبل منها صرفا ولا عدلا. قال المصنف رحمه الله:

ولا ترى العيب إلا فيك معتقدا ☆ عيبا بدا بينا لكنه استترا

ثم قال رضي الله عنه:

«لِكُلِ شَيْءٍ آفَاتٌ، وَآفَاتُ الصُوفِيَةِ مُتَابَعَةُ الهَوَى»

نعم إن الصوفي لا يتم له مقام المعرفة إلا إذا خلصت النفس من شوائبها المذمومة وتحلت بالحلل المحمودة، وهذه طريقة مسلوكة لكل من كان له نصيب من التصوف، غير أن العارف قد يتخلص من كل ذميمة ويتعذر عليه التخلص من الهوى بعد الخروج عنه، فكل من وقع به ما وقع وانقطع ورجع إلا بسبب متابعته الهوى ولهذا لا يؤمن على الصوفي إلا إذا لم يبق له هوى، بل يكون هواه متبعا لمرضاة الله وسبب وجود الهوى بعد إقلاعه وجود بقية النفس في بعض الكمائن وعدم تصحيح مقام الفنا لما قيل من كان فناؤه مشوبا كان بقاؤه مشوبا، ولا يسلم صاحب هذا الحال من وجود الخلل لبقية المرض، فيجب على المريد أن يصحح مقام الفنا حتى يستكمل فيه ويجهد جهده لكي يتخلى من كل وصف مناقض لعبوديته، لما قيل في هذا المعنى:

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته * وتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس فاستكمل فضائلها * فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وقال غيره

كمل حقيقتك التي لم تكمل * والجسم دعه في الحضيض الاسفل
أتكمل الفاني وتترك باقيا * مهلا وأنت بأمره لم تحفل
فالجسم للنفس النفيسة آلة * ما لم تحصله بها لم يحصل
يفنى وتبق دائما في غبطة * أو شقاوة وندامة لا تنجلي

أعطيت جسمك خادما لخدمته * أن يملك المفضول رق الأفضل
شرك كثيف أنت في أحباله * ما دام يمكنك الخلاص فعجل
من يستطع بلوغ أعلى منزل * ما باله يرضى بأدنى منزل

فلا تكون الراحة إلا بعد التعب، اتعب أيها المريد قليلا تَسْتَرِح كثيرا حتى إذا تفرغت من تهذيب نفسك واسقطت هواها تكون لك بدل أن تكون عليك. قال بعضهم رحمة الله عليه في ذلك:

الجاهل بالنفس مغرور * والنفس فيها الذخيرة
الحق بالخلق مستور * والنفس تخفي السريرة

ليس الشأن أن تقتل نفسك لأنها في الغالب لا تموت، إنما الشأن أن تملكها وتستعبدها وتجعلها مطيتك تسيرها حيث شئت، لا حيث شاءت فمن كان حكيما يهذب نفوس أتباعه من المريدين حتى يكون هواهم تابعا لمرضاته، ومن لم يهذب نفسه بعيد عنه أن يهذب نفوس الناس. قال سلطان العاشقين في هذا المعنى:

فنفسي كانت قبل لوامة متى * اطعها عصت أو أعص كانت مطيعتي
فأوردتها ما الموت أيسر بعضه * وأتبعتها كيما تكون مريحتي
فعادت ومهما حملتها تحملت * مني وإن خففت عنها تأذت
وكلفتها لا بل كفلت قيامها * بتكليفها حتى كلفت بكلفة
وأذهبت في تهذيبها كل لذة * بإبعادها عن عاديها فاطمأنت
ولم يبق هول دونها ما ركبته * وأشهد نفسي فيه غير زكية
وكل مقام عن سلوك قطعته * عبودية حققتها بعبودة
وكنت بها صبا فلما تركت ما * أريد أرادتني لها وأحبت
فصرت حبيبا بل محبا لنفسه * وليس كقول من نفسي حبيتي

خرجت بها عني إليها فلم أعد * إليَّ ومثلي لا يقول برجعة

ثم قال رضي الله عنه:

«مَنْ ضَيَّعَ الفَرَائِضَ فَقَدْ ضَيَّعَ نَفْسَهُ»

نفس الإسلام مركبة من الفرائض، ومن ضيع الفرائض ضيع نفسه وحظه من مرضاة الله. قال عليه الصلاة والسلام فيما يروي عن ربه: **ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه.** أي ولو كان لم يفتر عن أفعال البر فهو في معصية حتى يتوب ويقضي ما فاته. قلت:

وهل لتارك الفرض عز في غيره * والعز كل العز الفرض في وقته

قال في الحكم العطائية: من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات.

ثم قال رضي الله عنه:

«لاَ طَرِيقَ أَوْصَلُ إِلَى الحَقِّ إِلاَّ مِنْ مُتَابَعَةِ الرَسُولِ فِي أَحْكَامِهِ»

فلا طريق أوصل إلى الله أيها المريد إلا بمتابعة نبيك عليه الصلاة والسلام فهو باب الله الأعظم وصراطه الأقوم: **وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه.** ولبعضهم في هذا المعنى:

كل من يهوى ولا يهوى الرسول ★ كيف يعبأ به
هو باب الله ما ثم وصول ★ إلا من بابه

فمن أخذ بأحكامه واتبع ما أشار إليه فلا يتعذر الوضول عليه بخلاف من تهاون وتغافل ففي الغالب يتعذر عليه إن لم نقل يسقط من مرتبته لأنه انحرف عن السبيل الموصل لحضرة الجليل.

ثم اعلم أن الوصول إلى الله هو وصول إلى العلم به، وذلك موجود في الشرع ليس هو خارجا عنه، وما منعنا عن ذلك إلا عدم اجتهادنا واعتنائنا بما أخبر به الشارع، وترك التدبر في الأيات القرآنية والأحاديث النبوية، لأن الحقيقة باطنة في الشريعة بطون الكنز في المعدن أو الزبد في اللبن، ولا يظهر الزبد إلا بمخض اللبن.

ولهذا أمرنا الحق تبارك وتعالى بالتدبر في الأيات القرآنية والعمل بمقتضاها.

قال وهو أصدق القائلين: **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها.** ولولا الحجاب المانع لأدركنا كل ما نحتاجه في غوامض الكتاب والسنة، ولكن جرت حكمة الله بالوسائط والوسائل: **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة.** هذان شرطان لازمان في الدخول على الله. الشرط الأول: الوسيلة وهي صحبة الشيخ العارف بالمسالك. والشرط الثاني: التقوى وهي متابعة الرسول في أقواله وأفعاله.

كان سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه إذا أخذ العهد على فقير يقول له: يا فلان أسلك طريق النسك على كتاب الله وسنة

نبيه صلى الله عليه وسلم وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام، واتباع جميع الأوامر المشروعة، والأخبار المرضية، والإشتغال بطاعة الله قولا وفعلا واعتقادا، ولا تنظر يا ولدي إلى زخارف الدنيا ومطامعها وقماشها وريشها وخظوظها، واتبع نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم في أخلاقه فإن لم تستطع فاتبع خلق شيخك فإن نزلت عن ذلك هلكت مع الهالكين.

وعن سيدي المغربي رضي الله عنه قوله: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الهوى والبدع وتعظيم حرمات المشايخ وإقامة المعاذيرللخلق والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب الرخص والتأويلات، وما ضل أحد عن هذا الطريق إلا انحط من مقام الرجال.

وعن بعض العارفين: أصول طريقتنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله والإقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق. فقد تبين لك أيها المريد ما للقوم من العزائم، فإن أردت الإنتساب إليهم فعليك بعملهم **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم.**

ثم قال رضي الله عنه:

«بِالغَفْلَةِ تُنَالُ الشَهَوَاتُ»

الشهوات من حيث هي من نتائج الغفلة باعتبار أقسامها فنتائج غفلة المحجوبين عن الله الوقوع في شهوات المعاصي، ولو حصلت للمفرط أدنى مراقبة لما وقع به ما وقع. فالمراقبة تمنع وجود المخالفة فما نبت بذر الشهوات إلا في قلب غافل ولا يخرج الشهوات من القلب إلا وجود المراقبة أو المشاهدة أو تقول خوف مزعج، أو شوق مقلق، أي ناسخ لها وإن فرغ القلب مما ذكرنا فلا محالة تنبته الرذائل وترتحل الأسرار والفضائل. وعلامة فراغ القلب من الانس بالله وجود الشهوات، وهي مرض عضال يحتاج للمداواة.

وحاصل الأمر، أن وجود الغفلة أساس كل بلية، فمن استحكمت فيه قلت سلامته وقد تستحكم في العارف نفسه وتسرقه شيئا فشيئا وهو لا يشعر، إلى أن يعود إلى القطيعة والعياذ بالله، ولهذا كانت الغفلة عندهم تعد من أكبر المعاصي لأنها منشؤها، وما قرب للشيء يعطي حكمه، فهذه غفلة المحجوبين عن الله.

وأما غفلة العارفين فهي كناية عن الطواري البشرية الملازمة لهم ولا بد من طروها عليهم بأن يعطوها مستحقها ، وحالة اشتغالهم بما ذكرنا تعد لهم غفلة وذلك من رحمة الله بهم، إذ لو لم يكن نوع من التغفل لتعطلت أسباب العارفين لقوة مشاهدتهم وفيضان الحقائق عليهم. قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: قوي علي الشهود مرة فسألت الله أن يستره عني فقيل لي لوسألته بما سأله إبراهيم خليله

وموسى كليمه ومحمد حبيبه ما فعل، ولكن اسأله أن يقويك عليه فسألته فقواني. فلهذا قلنا أن التغفل الطاري على العارفين من نعم الله عليهم ما لم يتماد حتى يكون بمعنى الذهول.

ولهذا تراهم يتعوذون من وجود الغفلة كما يتعوذ الغير من وجود الحجاب، وإن كان ابتداؤها محمودا، لكونها تعتري العارف أولا على وجه مقبول، ويعبرون عن هذا المقام بشهود الحق في الخلق، وهو من أشرف المقامات، إلا أن ابتداء التغفل لا ينشأ إلا بوجوده، وقد تشتد أنواع الغفلة في قلب العارف فتصير تسرق فيه شيئا فشيئا، وإن لم يكن واقفا على باب قلبه تأخذه من حيث لا يشعر.

ولهذا كانت عندهم مذمومة ولو مع وجود فائدتها، وتتضح لك المعنى بما يروى عنه عليه الصلاة والسلام حيث قال: **إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم مائة مرة؛** وإياك يا أخي أن تفهم هذا الغين هو بمعنى الران، فحاشاه من ذلك عليه الصلاة والسلام. قلت:

فنزه قلبه عن كل وصف * يباعده عن حضرة الله

فإن ذلك من باب «حسنة الأبرار سيئة المقربين» والأحوال تترادف من الحق عز وجل على أنبيائه وأوليائه، وكل كمال إلا وعند الله ما أكمل منه. قال عليه الصلاة والسلام: **لي وقت لا يسعني فيه غير ربي،** فهذا الوقت هو غير الوقت الأول.

ثم اعلم أن الغفلة لا تعمل في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما تعمله في غيرهم، **ولقد همت به وهم بها لو لا أن رأى برهان ربه،** وذلك لوجود العصمة، بخلاف الأولياء، فلهذا يتعوذون منها أشد التعوذ، لأنها تنوب عن الحجاب في بعض الأوقات حتى كانت عندهم من أشد

المحرمات، وأنشد بعضهم في هذا المعنى:

لا حرام علينا إلا نظرة * تقتضي بيننا حجابا

ولا مكروه علينا سوى فكرة * تحدث في القلب سرابا

فالجحيم مع الشهود مودة * والنعيم مع الغفلة عذابا

وقد يكنونها رضي الله عنهم بالطائف البشري إذا استولى على الروحانية. قال أستاذنا سيدي محمد البوزيدي رضي الله عنه في قوله تعالى: **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا:** هو الطائف البشري يخرج العارف من الحضور وهو الجمع الى الغفلة وهو شهود الفرق، وفيه معنى النسيان المأخوذ من قوله تعالى: **واذكر ربك إذا نسيت.** وقد يتحكم ذلك الطائف البشري على العارف حتى يأخذه فإذا دام يصير عائقا وغفلة عليه ويعبرون عنها بسدل الحجاب، مع أن الحجاب عندهم معدوم ومع ذلك ينتقل من الشعور إلى التغفل ومن العيان إلى الذهول، وإذا لم يتداركه الله بلطفه رجع لشهواته البهيمية والطباع البشرية واشتغل بما يضره وهذه الحالة من أعظم المصائب على المريد، فإن رجع لله فالغالب يأخذ الله بيده. وحاصل الأمر أن الغفلة هي سجن المؤمن، وقد جرت مسألة بين اصدقائنا في قوله عليه الصلاة والسلام: **الدنيا سجن المؤمن، والقبر حصنه، والجنة مأواه، وأن الدنيا جنة الكافر، والقبر سجنه، والنار مأواه.**

فقلت هذا بيان الفئتين من أهل اليمين وأهل الشمال، فهاتوا ما عندكم في المقربين. قال أحدهم: إن القريب من الله وهو العارف الغفلة سجنه، والمعرفة حصنه، والمشاهدة مأواه، فوقع هذا الجواب عندي موقعه وعلى هذا لا يوجد عند العارفين ما يكدر عيشهم إلا

الغفلة إذا استحكمت عليهم. ولبعضهم رحمة الله عليه في هذا المعنى:

إن كنت أضمرت غدرا أو هممت به * يوما فلا بلغت روحي أمانيها
أو كانت العين منذ فارقتكم نظرت * شيئا سواكم لخانتها أمانيها
أو كانت النفس تدعوني إلى سكن * سواك فاحتكمت فيها أعاديها
وما تنفست إلا كنت في نفس * تجرى بك الروح مني في مجاريها
كم دمعة فيك لي ما كنت أجريها * وليلة لست أفنى فيك أفنيها
حاشا فأنت محل النور من بصر * تجرى بك النفس منها في مجاريها
ما في جوانح صدري بعد حاجته * إلا وجدتك فيها قبل ما فيها

ثم قال رضي الله عنه:

«كَثْرَةُ الطَّعَامِ وَكَثْرَةُ المَنَامِ وَكَثْرَةُ الكَلَامِ تُقْسِي القَلْبَ»

فكل فعل يقتضى الغفلة فهو من أجزائها، لأن كثرة الطعام والمنام والكلام من الأشياء المذمومة شرعا، خصوصا في طريق القوم، فإنهم جعلوا رضي الله عنهم أساس طريقهم على تقليل كل من ذلك لأجل استنارة الباطن وتحليه بالمعارف الإلهية، لأن القلب مهما ترادفت عليه الشهوات الباطنية وغيرها مما يكدر حاله إلا وتحوط به القساوة.

وفضل الجوع وقلة الكلام والنوم نتائجها معلومة في طريق القوم، وقد صنفت في ذلك تصانيف ودونت في فضائلها دواوين، فمن ذلك ما جاء في ذم الشبع: إن الله لا ينظر إلى جوف ملىء من الطعام.

قال عليه الصلاة والسلام: **إن الشيطان يجري من بني آدم مجرى الدم في الجسد، فضيقوا مجاريه بالجوع.**

وقد قيل لما خلق الله عز وجل الخلق جعل العلم والحكمة في الجوع،وجعل الجنة والمعصية في الشبع. قال سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه: قوة المريد الصادق الجوع، وشرابه الدموع، فهذا حال الصديقين

كان يقول مولانا العربي رضي الله عنه: فقراء هذا الزمان يأكل أحدهم ما يحمل البعير ويشرب قدر ماء الغدير. ويقول الشيخ ما فيه خير، فلعنة الله على الكاذبين.

وأما فضل السهر وذم النوم معلوم بالضرورة عند العموم فضلا فيما ذهب إليه القوم وصرحت به السنة المطهرة، فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: **أتاني جبريل فقال: يامحمد عش ما شئت فإنك ميت، واحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس.** ومما يروى عنه أيضا أنه كان صلى الله عليه وَسَلَّم إذ ذهب ثلثا الليل قام فقال: **أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه.** وكفى فيما يروى عنه أنه قام الليل حتى تورمت قدماه.ومن اللطائف أن أبا يزيد البسطامي رضي الله عنه كان صغيرا في الكتَّاب فلما وصل إلى سورة المزمل قال يوما لأبيه: من هذا الذي أمره الله بقيام الليل؟ فقال: هذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. قال: فلم لم تفعل ما فعل نبيك؟ قال: ذلك أمر شرفه الله به، فلما قرأ﴿وطائفة من الذين معك﴾قال

له: من هؤلاء يا أبتي؟ قال: أصحاب محمد. قال: فلم لم تفعل كما فعل أصحاب محمد؟ قال: هؤلاء قواهم الله على قيام الليل. قال: يا أبتي لا خير فيمن لا يقتدي بمحمد صلى الله عليه وسلم ولا بأصحابه، فصار أبوه يصلي بالليل، فقال: يا أبتي علمني صلاة الليل. فمنعه، قال له: إنك صغير! فقال: إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة وأمر بأهل الجنة إلى الجنة أقول أردت الصلاة بالليل فمنعني أبي. فقال له: يا بني قم وصل. وقيل أن الإمام الجنيد رضي الله عنه لما مات رآه بعض أصحابه في المنام فقال: ما فعل الله بك؟ قال: طارت تلك الإشارات وطاحت تلك العبارات وغابت تلك العلوم واندرست تلك الرسوم وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحور، فإن كان هذا الإمام مع شرفه وعلو رتبته لم يفتر عن قيام الليل بل قال ما نفعني إلا ركيعات فكيف بمن عداه؟ اللهم احي قلوبنا وارزقنا ما انعمت به على اسلافنا الكرام.

وعن ذي النون المصري رضي الله عنه أنه قال: لقيت في بعض سواحل الشام امراة فقلت لها: من أين أقبلت؟ قالت: من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فقلت: وأين تريدين؟ قالت: أريد رجالا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فقلت: صِفِيهِمْ لي فقالت:

قوم همومهم بالله قد علقت * فما لهم هم تسمو إلى أحد
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم * ياحسن مطلبهم للواحد الصمد

وأنشد بعضهم في مدح هؤلاء القوم ايضا:

إذا ما الليل اظلم كابدوه * فاسفر عنهم وهم ركوع
اطال الخوف نومهم فقاموا * واهل الأمن في الدنيا هجوع

وقال غيره:

طوبى لمن سهرت في الليل عيناه * وبات ذا قلق في حب مولاه
وناح يوما على تفريطه وبكى * خوفا لما جناه في خطاياه
وقام يرعى نجوم الليل منفردا * خوف الوعيد وعين الله ترعاه

وأما ما جاء من الفضل في قلة الكلام فشهرته لا تخفى،وكفى ما قيل:لو كان الكلام من فضة، لكان الصمت من ذهب. وقوله عليه الصلاة والسلم: **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت.**

كانوا عليهم تمام الرضى والرضوان لا يتكلمون إلا بذكر الله أو فيما يقربهم إلى الله، خشية منهم أن يقعوا في المحذور لما قيل: من كثر كلامه كثرت آثامه.

قال بعضهم: كنا سائحين في البادية فضرَّ بنا العطش، فملنا إلى ديرراهب هنالك فناديناه أيها الراهب فلم يجاوبنا، فكررنا ذلك فخرج إلينا وقال: أنا لست براهب إنما أنا كلب عقور حبست نفسي في هذا الدير كي لا أؤذي مخلوقات الله بلساني، وعقد بعضهم عقدة مع ربه ان لا يتكلم إلا بكلامه تحجيرا على نفسه لكيلا يفرط في كثرة الكلام.

ومن اللطائف ما يحكى أن عبد الله بن المبارك رضي الله عنه قال: خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر المصطفي عليه الصلاة والسلام، فإذا أنا في بعض الطريق وإذا بسواد على الطريق، فإذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف فقلت لها السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقالت **سلام قولا**

من رب رحيم، فقلت لها يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟ فقالت:**من يضلل الله فلا هادي له** فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها: أين تريدين؟ فقالت: **سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى،** فعلمت أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس فقلت لها: كم لك في هذا الموضع؟ **فقالت: ثلاث ليال سو يا،** فقلت لها: ما أرى معك طعاما تاكلين منه؟ فقالت: **هو يطعمني و يسقيني،** فقلت: فبأي شيء تتوضئين؟ فقالت: **فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا** فقلت لها: إن معي طعاما فهل لك في الأكل منه فقالت: **ثم اتموا الصيام إلى الليل** فقلت لها: ليس هذا شهر صيام رمضان. فقالت: **ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم** فقلت: قد ابيح لنا الإفطار في السفر فقالت: **وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون. فقلت:** لم لا تكلمني مثل ما أكلمك؟فقالت: **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** فقلت: فمن أين الناس أنت فقالت: **ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولائك كان عنه مسؤولا** فقلت: قد أخطأت فاجعلني في حل فقالت: **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم** فقلت: فهل لك أن احملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة؟فقالت: **وما تفعلوا من خير يعلمه الله،** قال فأنختها فقالت: **قل للمومنين يغضوا من أبصارهم** فغضضت بصري عنها ولكن لما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم،**فقلت لها اصبري حتى اعقلها فقالت: **ففهمناها**

سليمان فعقلت الناقة وقلت لها اركبي،فلما ركبت قالت: **سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون.** قال فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح فقالت: **أقصد في مشيك واغضض من صوتك** فجعلت امشي رويدا رويدا واترنم بالشعر فقالت: **فاقرؤوا ما تيسر من القرآن** فقلت لها: لقد اوتيت خيرا **فقالت:وما يذكر إلا اولوا الألباب** فلما مشيت بها قلت لها ألك زوج، فقالت: **يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن اشياء إن تبد لكم تسؤكم** فسكت ولم اكلمها حتى ادركت بها القافلة فقلت لها: هذه القافلة فما لَكِ فيها فقالت: **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** فعلمت أن لها اولادا فقلت وما شأنهم في الحج؟فقالت: **وعلامات وبالنجم هم يهتدون** فعلمت أنهم ادلاء الركاب فقصدت بها الخيام وقلت هذه الخيام فما لَكِ فيها فقالت: **واتخذ الله ابراهيم خليلا، وكلم الله موسى تكليما، يايحيى خذ الكتاب بقوة،** فناديت يا ابراهيم ياموسى يايحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد اقبلوا فلما استقر منهم الجلوس قالت:**فابعثوا احدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فلياتكم برزق منه وليتلطف** فمضى أحدهم فاشترى طعاما فقدمه بين يدي فقالت:**كلوا واشربوا هنيئا بما اسلفتم في الأيام الخالية،**قلت الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها فقالوا هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمان،فقلت:ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم قال رضي الله عنه:

«الصَّمْتُ نَجَاةٌ»

تقدم قبل هذا أن الكلام مضر بصاحبه وأنه منوط بالآفات فلا محالة ان الصمت نجاة، أي فلا يؤمر بكثرة الكلام **(إلا من اذن له الرحمان وقال صوابا)** لان النطق لا يخلو ان يكون فيه هوى من هوى النفس، ومن أذن له الرحمان لا ينطق عن الهوى لأن نطقه بالله فهو يسمع من الله ويبلغ عن الله فلهذا كان نطقه أولى من الصمت، ومن لم يصل إلى هذه الرتبة فالصمت أولى،لأنه سبيل النجاة. قال بعض الصحابة لرسول الله ﷺ: **أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسئل عنه أحدا بعدك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم قال: قلت فمن اتقي، فأومى بيده إلى لسانه.**

وعن عقبة رضي الله عنه قال قلت: يارسول الله ما النجاة؟ قال: **أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك.** وعنه عليه الصلاة والسلام: **كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاث: أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله تعالى.** وناهيك من قوله عز منّ قائل: **لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقه او معروف او إصلاح بين الناس.**

سئل بعض الحكماء عن قلة كلامه فقال: لأن الحق سبحانه وتعالى خلق لنا أذنين ولسانا لنسمع أضعف ما نقول لا لنقول أكثر مما نسمع. وما أحسن ما قيـــــل:

أسمع مخاطبة الخليل ولا تكن ☆ عجلا بنطقك قبل ما تتفهم
ألم تعط مع أذنيك نطقا واحدا ☆ إلا لتسمع ضعف ما تتكلم

وحاصل الأمر، أن المريد ينبغي له أن يأخذ من الصمت أضعف ما يأخذه من الكلام، خصوصا في حضرة العارفين، فلا يسوغ له إلا الإنصات وكيف يتكلم بين رجال كلامهم يبرز من الفيض الإلهي، فإن كان هكذا فبأي كلام يبارز من لم يصل إلى مرتبتهم فيكفيه أن يفهم، وعليه فمن أراد النجاة من أهل الله أن لا يعارضهم بكلامه المكسوف الأنوار، والمطموس الآثار، وأن لا يبدي علمه بحضرتهم، وللمصنف رضي الله عنه في هذا المعنى:

ولازم الصمت إلا إن سئلتَ فقل ☆ لا علم عندي وكن بالجهل مستترا

لأن المحجوب عن الله يخطئ في كلامه مع العارفين بالله أكثر من أن يصيب، لجهله بمقاماتهم، واصطلاح القوم غير متعاط عند العموم، وعلى كل حال، فالصمت ممدوح، ونجاة للمريد في أغلب الأوقات ولسائر الطبقات. وقد بلغك ما ورد فيه من الأثر، وما أحسن ما قيل:

إن كان يعجبك السكوت فإنه ☆ قد كان يعجب قبلك الأخيارا
ولئن ندمت عن سكوتك مرة ☆ فلتندمن على الكلام مرارا
إن السكوت سلامة ولربما ☆ زرع الكلام عداوة وضرارا

ومما يروى عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال: عزت السلامة حتى لقد خفي مطلبها فإن تكن في شيئ فيوشك أن تكون في الصمت فإن لم تكن فيوشك أن تكون في السلف الصالح والسعيد من وجد في نفسه خلوة.

ثم قال رضي الله عنه:

«إِذَا سَلاَ القَلْبُ عَنِ الشَهَوَاتِ فَهُوَ مُعَافَى»

القلب له مرض خفي، ودليله وجود ميوله للمحبوبات النفسانية، حتى إذا تسلى عن ذلك وتنزه وتطهر من وجود الشهوات البهيمية كان ذلك دليلا على صحته من العلل النفسانية والخواطر الشيطانية، وتعينه صلاحيته لحمل الأسرار وتجليات الأنوار، وما دام فيه شيء من ذلك فهو غير معافى، فيحتاج إلى طبيب يعالجه حتى يصح من مرضه، ويتوجه إلى ربه، وإلا فالحجاب أولى به.

قال بعضهم:

كانت لقلبي أمراض ينبي عن حالها ☆ تَشَوُّقٌ للأعراض حيثما رءاها
ولما طاب الفؤاد من ذكر ربه ☆ أعرض عن الأعراض صار لا يراها

ثم قال رضي الله عنه:

«لَيْسَ لِلْقَلْبِ إِلاَّ وِجْهَةٌ وَاحِدَةٌ فَمَهْمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهَا حُجِبَ عَنْ غَيْرِهَا»

القلب سريع التقلب، ومهما توجه لوجهة احتجب عن غيرها فوجهه أيها المريد لمولاه ونزل الناس منازلها، ومنزلة القلب للحق لا لغيره والحق ينزل العبد حيث أنزله العبد من نفسه. ومن أراد أن ينظر منزلته عند ربه فلينظر منزلة الله في قلبه.

كن أيها المريد محافظا على قلبك فليس لك سواه، فإن فقدته

فقدت انسك بالله إذا توجه قلبك لما سوى الله احتجب عن الله.

فاجعل بارك الله فيك الحق وجهتك، واصبر على صحبة مولاك لئلا يبتليك بما سواه، لقول المصنف فيما سيأتي: **من لم يصبر على صحبة الحق ابتلي بصحبة العبيد،** لأن الحق غيور لا يقبل العمل المشترك فكيف بالقلب المشترك، **إن الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء [إن الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة]**

القلب يخشى عليه قبل التمكن من المعرفة، واما بعد التمكن فلا يخشى عليه، وإن كانت له وجهة واحدة فيجد الحق له وجوها، **اينما تولوا فثم وجه الله.** يخاف على العارف قبل التمكن من معرفة التوحيد المطلق، واما بعد المعرفة يكون الحق وجهته، **ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات،** يكون قلبه فارغا من وجود الغير كما فرغ فؤاد ام موسى **واصبح فؤاد ام موسى فارغا ان كادت لتبدي به.** بدون اختبار حيث لم يكن في قلبها سواه. «ما تنطق الأواني إلا بما سكن» **(لولا ان ربطنا على قلبها).**

فكذلك قلب العارف حيث تمحض لسكنى الحق يكاد ان يبدي اسراره لولا ان ربط الحق تبارك وتعالى على قلبه لئلا يفشي بعض اسراره. قال بعضهم في هذا المعنى:

ـ منك أن أكشف الهوى ☆ وأغنيتني بالقرب منك عن الكشف
تراءيـ ـ لي بالغيب حتى كأنما ☆ تبشرني بالغيب أنك في الكف
أراك وبي من هيبة منك وحشة ☆ فتؤنسني بالعطف منك وباللطف
ويحي محب أنت في الحب حتفه ☆ وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وذلك من إغارة الحق على العارف لأن الإفشاء يعود على صاحبه بما يؤدي لنقصه فى نظر الخلق، والحق أشد غيرة على أوليائه كما هم أشد غيرة عليه، قيل فى هذا المعنى:

قيل لى أرنا ليلى فأنت أمينها ☆ فقلت إن أخبرتكم لست بأمين

وقال غيره:

فلو قيل من تهوى وصرحت باسمها ☆ لقيل جن أو مسه طائف جني

ثم قال رضي الله عنه:

«المَحْفُظُونَ عَلَى طَبَقَاتٍ أَيْ عَلَى مَرَاتِبَ ثَلَاثَةٍ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ»

أما الرتبة الأولى فهم عامة المسلمين محفوظون كما قال محفوظون من الكفر والشرك بالهدى، فلولا هداية الله لهم لما اهتدوا **ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا**، اذ الإسلام موهبة من الله لعبده من غير اكتساب فمن اهتدى إليه ودخله كان محفوظا من الكفر والشرك المقتضيين للعذاب المهين المترتب بهما **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**، فكانت هذه الهداية موجبة

للمغفرة وهي من نعم الله على عبده المؤمن.

وأهل الرتبة الثانية: وهم خواص المسلمين كما قال: المحفوظون عن الكبائر والصغائر بالعيان أي بسبب ما وقع لهم من العيان إما من مشاهدتهم لله وإما من مشاهدة الله لهم من الوقوع في الكبائر والصغائر بسبب مراقبتهم لله، فصار قيامهم بالله ونظرهم إليه قد تولى الله أمرهم فصرف جوارحهم فيما يرضيه فهي دائرة بين واجب ومندوب ومرغوب ومحبوب لا يصرف أحدهم همته إلا فيما يرضي الله قائلا:

إن يكـــن يرضيـــك قتلي ☆ فـــاجعل المـــوت في قـــربي

من كان عبـدا لله كان الله لـه ☆ والله ولي العبـد مهمـا تـولاه

كانت جوارحهم مقصورة في الطاعة، لا تخرج عن ذلك إلا ما شاء الله، بسبب العيان بلا تكليف ولا تحمل مشاق، لما هم عليه من اللين في الباطن والظاهر **ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر اللـــــه**

أما اهل الرتبة الثالثة: وهم خاصة الخاصة من الأمة المحمدية فمحفوظون من الخطرات والغفلات بالرعاية كما قال وهو الحق.

وهذا القسم يدخل فيه الأنبياء والمرسلون وخاصة الخاصة من الموحدين فحفظ الله تبارك وتعالى قلوب أوليائه من الخطرات والغفلات برعايته لهم حتى يصير قلب العارف لا يمر عليه ما سوى الله ولا يخطر عليه ما عداه ولا يغفل عن الحضور مع الله كما قيـــل:

مــذ عرفــت الإلـــه لم أر غيرا ☆ وكـــذا الغير عندنـــا ممنـــوع
مذ تجمعت مـا خشيت افتراقـا ☆ وهـا أنـا اليوم واصل مجمــوع

وقال بعضهم: وقفت على باب قلبي اربعين سنة مهما خطر عليه ما سوى الله رددته،وليس المراد بالخاطر اثبات وجود الغير فحاشاهم من ذلك،إنما هو على سبيل النسيان الملازم للطباع البشرية، ويكون ذلك بمنزلة الذنب عندهم،كما قال بعضهم:

لا حـرام علينـا إلا نظـرة ☆ تقتضي لنا في الحق حجابا
ولا مكروه علينا إلا فكرة ☆ تحدث في القلب وهما سرابا

إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا، فإذا هم مبصرون؛ أي طائف من الطبع البشري من غير تمكن ذلك في بواطنهم وكل ذلك من رعاية الله لهم حتى صاروا يستوحشون من ذكر اسم الغير، ولولا كل اسم من أسماء الموجودات تحته اسم من أسم الله عز وجل لما تلفظوا بأسماء الغير ولو على سبيل التعليم ولكن لما كشف لهم عن وحدانيته في الذات والصفات والأفعال فوجدوا لا اسم مع اسم الله كما لا ذات مع ذاته ولا صفات مع صفاته، كما قيل في هذا المعنى:

فهو واحد الذات في الكل ظاهر ☆ فــأينما ترى ثم وجــه الحقيقــة

فاستراحوا من الهفوات والخطرات والغفلات،ومن كل وصف مناقض لحضورهم مع الله،حتى صارت الغفلة عندهم يعتبرونها من جملة الكبائر،لما قيل في هذا المعنى:

وان خطرت لي في سـواك إرادة ☆ على خاطري سهوا قضيت بردتي

هذا إن خطرت له سهوا،وأما لو كانت على سبيل التعمد تكون له قطيعة،ولا يعد من أهل هذا المقام،لما هو عليه من سدل الحجاب،وكفاه حتى ارتسم بقلبه وجود الغير، والقلب الذي يصور المحال ليس له في حضرة الله إقبال.

ثم قال رضي الله عنه:

«يَانَفْسُ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ لَكِ إِنْ اتَّعَظْتِ»

من نعت العارفين في نصائحهم وأوامرهم أن يتجردوا عن أنفسهم ،ويخاطبونها في مجالس وعظهم ،كما يخاطبون بقية المستمعين، ولو لم يخاطبوا أنفسهم بالتوبيخ كما يخاطبون الغير لما استقام سيرهم،وكان كلامهم نافعا وللمضرة دافعا، تجد كلام القوم رضوان الله عليهم يقع على القلوب فيحييها وعلى النفوس فيمحيها لما فيه من رائحة الحق، فلا محالة يحيي القلوب لأن الكلام إذا صدر من القلب وقع فيه،لكونه خاليا من الأهواء، فالعارف لا ينطق بهوى نفسه. لقوله عز وجل في حق المقتدى به: **وما ينطق عن الهوى؛** فكان لهم ذلك من حيث الارث، يقولون الحق ولو في أنفسهم،قبل أن يقولوه في أبناء جنسهم.

ترى العارف حالة تذكيره يغلظ على نفسه فيضع عليها الأثقال حتى تكاد أن تزهق من غير مراقبة لها ولا لغيرها، لأن العارف في قومه كالنبي في أمته، وقد يبعث النبي لنفسه ولأبناء جنسه.

الكمالات، فعنصر مساويها لا ينفد ولهذا قال في الحكم العطائية لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لا تصل إليه أبدا،ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته، فوصلك إليه بما منه إليك لا بما منك إليه، فيالها من حكمة قد فصد فيها عما في الضمير،لأن محو دعاوي النفس شرط في الوصول،وإذا كان الأمر كذالك لن يصل العبد إلى الله،لأن دعاويها لا تنفك ومساويها لا تتناهى.

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه:[لن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته، أو تدبير من تدبيراته]ولن يطيق المريد على محو ما ذكرنا إلا إذا استعان بالله على نفسه وإلا صرعته، ومثل المريد مع نفسه كمن مرت عليه نحو التسعين سنة من عمره وهو في المعاصي والمخالفة وترك الفرائض من صلاة وصيام وحج وزكاة؛ فإذا أراد الرجوع إلى الله فهل يتمكن له أن يقضي ما فاته على الترتيب من قضاء وكفارة وغير ذلك في بقية الحياة؟كلا!فإنها لا تسعه وليس عليه إلا أن يرجع لله بقلبه كدخول الكافر للإسلام بقوله: لا إله إلا الله ويشتغل بالله اشتغالا كليا لأنه إذا التفت لما فات فإنه يقطعه عن الله ويعوقه عن التوجه إليه والوقوف معه.

قال في الحكم العطائية:[لا يعظم عندك ذنب عظمة تصدك عن الله]فهذا صاحب المخالفة المحظورة، عند وجود التوبة يتعذر عليه أن يقضي ما فاته،مع أن المخالفة قد تمت عند رجوعه إلى الله،فكيف بصاحب مساوئ النفس التي لا نفاذ لها في المستقبل،فهل يمكنه أن يحصر مساويها وتحيلاتها؟

قال بعضهم: النفس مثل الفحمة كلها سواد فهل يمكن غسلها؟ كلا! لأنها لا تصفى إلا بالنار، فإذا وضعت فيها تتنور وتضيء من كل جانـــــب.

لا يصلح للنفس إذا كانت مدبرة ☆ إلا الرجوع من حال إلى حال

اولئك يبدل الله سيآتهم حسنات. اترك الصنعة أيها المريد لصانعها إن شاء أيدها وإن شاء أهملها، واشتغل بالله وافن فيه،بدل أن تشتغل بنفسك،لأنك مطلوب بالخروج عن كل الخلق،وهي من جملتهم، ومهما اشتغلت بها غفلت عن ربك وإن كان ولا بد أن تشتغل بها، ففتشها فإنها محتوية على أسرار غريبة وما كثرت مساويها إلا لتستر أسرار الحق، **ومن نعمره ننكسه في الخلق.**

وحاصل الأمر، أن المريد ينبغي له حالة اشتغاله بالله أن يترك كل فعل صدر منه في السابق محمودا كان أو مذموما ويشتغل بالله على وفق ما دله عليه المرشد ولا يرى لنفسه عملا البتة، حتى إذا تحقق التجاؤه إلى الله فلا جرم يأخذ الله بيده بما منه إليه لا بما من العبد إلى الله، لأن طاعته لا تقربه من الله شبرا ومعصيته لا تؤخره ذراعا؛ **والله ولي المتقين.**

ثم شرع يتكلم في النهي عن صحبة الأشرار.

الفصل الثاني
في نهيه عن صحبة الأشرار

قال رضي الله عنه:

«دَلِيلُ تَخْلِيطِكَ صُحْبَةُ المُخَلِّطِينَ وَدَلِيلُ وَحْشَتِكَ أُنْسُكَ بِالمُسْتَوْحِشِينَ»

قال بعضهم مع من تكن، بحاله تكن، والمجالسة مجانسة، والأطيار على اجناسها تقع، والأشياء تشفع بأمثالها. قال المؤلف في بعض كلامه: ولا تطيب النفوس إلا بأمثالي، والقرين بالقرين يقتدي، ولا بد من الرابطة في المصاحبة ولو من وجهة، قيل لبعض العارفين أن العامة يثنون عليك بخير، فبكى وقال: وجدوا فيّ البعض من اوصافهم. فتحصل من هذا أن المخالطة لا تخلو من رابطة ما بين المختلطين. قال بعضهم: كنت سائحا وإذا بغراب وحمام يمشيان فتعجبت من ذلك لفقد المجانسة وقلت: إن الأطيار تقع على أجناسها وأين المجانسة؟ ثم تقدمت إليهما لكي نحقق المسألة فلما وقع بصري عليهما وجدت كل واحد منهما مكسور الجناح، فظهر لي أن الرابطة موجودة وهي نفس الكسر، ولو لم تكن تلك المناسبة لما استأنس كل منهما بصاحبه، فمن أجل هذا ظهر لنا أن دليل وحشة المريد أنسه بالمستوحشين فلو لم تسبق له وحشة لفر منهم فرار الذئب من الأسد. إياك ياأخي ومخالطة أقران السوء، فهي أشد بأسا من صحبة الشياطين فلا تجالس من لا ينهضك حاله ولا يدلك على

الله مقاله، فإن مخالطة العموم سموم ولو كانوا من الأقارب فإنهم لك عقارب ،فإن استأنست بمجالستهم فلا محالة تسرقك سيرتهم وتأخذك من حيث لا تشعر، لأن الطبع سراق،ولا تقل إني منكر على حالهم وإن جالستهم،فذلك لا يقبل منك،إذ لو كنت منكرا عليهم لما دمت على صحبتهم،والقلب لا يُقبل إلا على ما استحسنه ولو كنت مستأنسا بالحق وبأهله لجانبت كل كلام مباين لما أنت عليه وتشم له رائحة كريهة، ثقيل المعنى كسيف الصورة لا تقدر أن تسمعه فضلا على أن تستأنس به وبأهله وتخالطهم وتصاحبهم فلو صدقت الله لأنصفت من نفسك ورجعت من غيك وفررت من أقران السوء فرار الذئب من الأسد ،خشية على ذاته من الهلاك وأنت فر بإيمانك بارك الله فيك الذي كنت تزعم أنه أعز عليك من بدنك،وانكر ما أمر الله بإنكاره، ولبعضهم في هذا المعنى:

تمسك بحبل الشرع واضرب بسيفه ☆ رؤوس المعاصي واتخذ منه جواشنا
وبادر إلى إنكار ما كان خارجا ☆ عن الحق واحذر أن تكون مداهنا

ثم قال رضي الله عنه:

«مُخَالَطَةُ أَهْلِ البِدَعِ تُمِيتُ القَلْبَ»

من كان فيه أدنى بدعة فاحذر مجالسته لِئَلاَّ يعود عليك شؤمه بعد حين

قال عليه الصلاة والسلام: **كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار؛** فكل من خالف الكتاب والسنة فهو مبتدع وليحذر المريد

مجالسة من كان هذا نعته، فإن مجالسته تميت القلب من حيث لا يشعر صاحب القلب، ولهذا قال المصنف: فاحذر مجالسته، وعليه يجب على المريد بل على المؤمن من حيث هو إذا عز عليه إيمانه أن يفر من مجالسة المبتدعة لئلا ينقص من إيمانه.

قال عليه الصلاة والسلام: **جددوا إيمانكم بملاقاة الأحباب، قيل آ الإيمان يبلى يا رسول الله؟قال: يبلى كما يبلى الثوب.** وكما أن مجالسة الأحبة تجدد الإيمان، فكذلك مجالسة المبتدعة تميته وتكسف نوره،والملاقاة مساقاة في كل شيء شيء،من نور وظلمة، ومن الواجب على مريد الطريق أن يحذر مجالسة كل من فيه ما يخل بالشرع الشريف أقتداء بسيرة السلف، فقد هاجروا الخلق صيانة لقلوبهم وتطهيرا لاسرارهم. قيل أن الخليفة المنصور لقي سفيان الثوري فقال له: ما يمنعك أن تأتينا يا أبا عبد الله؟ فقال: إن الله سبحانه وتعالى نهانا عنكم حيث يقول: **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار.** ودخل عليه يوما وقد أرسل إليه فقال له: سل حاجتك، فقال: أو تقضيها؟ قال: نعم. قال حاجتي أن لا ترسل إليّ حتى آتيك ولا تعطيني شيئا حتى أسئلك. وعنه رضي الله عنه:أنه كتب لبعض العباد يقول له: اعلم يا أخي أنك في زمان كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذون أن يدركوه ومعهم من العلم ما ليس معنا،ولهم من القدم ما ليس لنا،فكيف بنا حين أدركناه على قلة العلم وقلة الصبر،وقلة الأعوان على الخير،وفساد من الزمان، فعليك بالخمول فإن هذا زمان الخمول، وعليك بالعزلة وقلة مخالطة الناس فقد كان الناس إذا

التقوا انتفع بعضهم ببعض، فأما اليوم فقد ذهب ذلك، فالنجاة الآن في تركهم فيما نرى...

...وإياك ياأخي والأمراء أن تدنو منهم أو تخالطهم في شيء من الأشياء، أو يقال لك اشفع أو تضرع عن مظلوم أو رد مظلمة،فإن ذلك من خديعة إبليس، وإنما اتخذ ذلك القراء سلما للقرب منهم واصطيادا للدنيا بذلك. وكان يقول هذا زمان عليك فيه بخاصة نفسك ودع العامة.

وقيل أن الإمام الغزالي رضي الله عنه وُجِدَتْ تحت وسادته بعد وفاته هذه الأبيات:

كنت عبدا والهوى حاكمي ☆ فصرت حرا والهوى خادمي

وصرت بالعزلة مستأنسا ☆ من شر أنواع بني آدم

ما في اختلاط الناس خير ولا ☆ ذوي الجهل بالأشياء كالعالم

يا لائمي فى تركهم جاهلا ☆ عذري منقوش على خاتمي

فنظروا فإذا نقشه «**وما وجدنا لأكثرهم من عهد. وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين**» وإن كان هذا ياأخي في زمانهم فكيف بزماننا.

فينبغي للمريد أن يجانب ما استطاع مجالسة من أخذ من الإسلام إنقياد الجوارح الظاهرة فقط، وخصال الإسلام تأبى كل وصف مذموم، فهو جامع لشرف الدارين متكفل بمصالح العباد، فمن أراد أن يحدث في دين الله ما ليس فيه،فهو متعرض لغضب الله، فاحذر ملاقاته أيها المريد لئلا يعود شؤمه عليك وأنت لا تشعر. قال تعالى: **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون.**

التقوا انتفع بعضهم ببعض، فأما اليوم فقد ذهب ذلك، فالنجاة الآن في تركهم فيما نرى...

... وإياك ياأخي والأمراء أن تدنو منهم أو تخالطهم في شيء من الأشياء، أو يقال لك اشفع أو تضرع عن مظلوم أو رد مظلمة،فإن ذلك من خديعة إبليس، وإنما اتخذ ذلك القراء سلما للقرب منهم واصطيادا للدنيا بذلك. وكان يقول هذا زمان عليك فيه بخاصة نفسك ودع العامة.

وقيل أن الإمام الغزالي رضي الله عنه وُجِدَتْ تحت وسادته بعد وفاته هذه الأبيات:

كنت عبدا والهوى حاكمي ☆ فصرت حرا والهوى خادمي

وصرت بالعزلة مستأنسا ☆ من شر أنواع بني آدم

ما في اختلاط الناس خير ولا ☆ ذوي الجهل بالأشياء كالعالم

يا لائمي فى تركهم جاهلا ☆ عذري منقوش على خاتمي

فنظروا فإذا نقشه «**وما وجدنا لأكثرهم من عهد. وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين**» وإن كان هذا ياأخي في زمانهم فكيف بزماننا.

فينبغي للمريد أن يجانب ما استطاع مجالسة من أخذ من الإسلام إنقياد الجوارح الظاهرة فقط، وخصال الإسلام تأبى كل وصف مذموم، فهو جامع لشرف الدارين متكفل بمصالح العباد، فمن أراد أن يحدث في دين الله ما ليس فيه،فهو متعرض لغضب الله، فاحذر ملاقاته أيها المريد لئلا يعود شؤمه عليك وأنت لا تشعر. قال تعالى: **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون.**

ثم قال رضي الله عنه:

«اِحْذَرْ صُحْبَةَ المُبْتَدِعَةِ إِتقَاءً عَلَى دِينِكَ»

المبتدع غير أمين في الدين، فاحذر صحبته أيها المريد الصادق، لئلا يعود وباله عليك، وربما يزيد عليك في الدين ما ليس منه، فإن المبتدع لا يؤمن عليه، فبصحبته تستدين بدينه في الغالب، ثم جريا على حكم المجاورة تسير بسيرته، وإذا استحسنتها لا يخلو من وجود اقتدائك به في شيء منها، لأن النفس مجبولة على حب الإقتداء، فمن أراد سلامة دينه فلا يخاطر به، ودين المؤمن أعز من نفسه، فاتبع أخي صراط الإجتماع واترك سبيل الإبتداع، وقد فرغت الأمة المحمدية من توضيح السنة النبوية، فهي واضحة لمن اهتدى إليها سبيلا، فلم يبق علينا إلا مجرد الإتباع. قال تعالى: **اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا.**

ثم قال رضي الله عنه:

«احْذَرْ صُحْبَةَ النِسَاءِ إِتِّقَاءً عَلَى قَلْبِكَ»

من استأنس بمجالسة النساء فهو مريب، احذر أيها المريد الصادق صحبة النساء، فإنها للقلب بائسة وسم قاتل وداء عضال. قال عليه الصلاة والسلام: **ما تركت لأمتي فتنة أشد من فتنة النساء**، فمن أراد سلامة قلبه فليحذر من مجالسة الأجنبية ومن

النظر إليها،فهي كلها فتنة مشغلة للقلب. **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم.** والقلب إذا أصابه سهم النظر وتوطن في فكره لا يسلم في الغالب، لأن القلب مجبول على ذلك،والميلان من طبعه، فلهذا كان الإنسان من حيث هو لا يؤمن عليه لما قيل لو كان عرق من المرأة في المشرق وعرق من الرجل في المغرب لحن كل واحد منهما إلى صاحبـــه وما اختلى رجل بامرأة إلا همت به وهم بهـــا.

قال مولانا العربي الدرقاوي رضي الله عنه: إذا رأيتم رجلا وامرأة يطيران في الهواء فافرقوا بينهما في ذلك الطيران، لأن المرأة كلها عورة،والرجل كله نظرة،ولو لم يكن مريض القلب قليل الإيمان،أي شيء يأخذه من مجالسة النسوان ناقصات الدين والعقل، كلا إنما هو مصاب بمرض لا دواء له إلا بمفارقتهن.

احذر أيها الأخ الصادق من مجالستهن والنظر إليهن ولا تمدن عينيك لمن ليس لك، واتَّقِ الله في النساء،وإلا يخاف عليك فإنهن حبائل الشيطان وذلك معلوم عند كل إنسان. فمن صدق الله في سره لا يخفى ذلك عليه.

ثم اعلم أن المنسوب إلى الله إذا وقع بصره على مستحسن وتمكن ذلك من قلبه فلا بد من عقوبة من الله تطرأ عليه إما في بدنه وإما في قلبه، فإذا جزاه الحق عز وجل بما يستحق نزع حلاوة المعرفة من قلبه، وإن لطف به أجرى ذلك على ظاهره كما هو معروف عند المنتسبين إلى الله بالضرورة. قال أبو يعقوب النهرجوري رحمه الله: رأيت في الطواف رجلا ذا عين واحدة

وهو يقول في طوافه: أعوذ بك منك، فقلت له: ما هذا الدعاء؟ فقال: إني مجاور البيت منذ خمسين سنة؛ فنظرت إلى شخص يوما فاستحسنته فإذا بلطمة وقعت على عيني فسالت على خدي،فقلت آه فوقعت أخرى فإذا قائل يقول لو زدت زدناك. وقال محمد بن عبد الله: كنت مع أستاذي أبي بكر رحمه الله فمر حدث فنظرت إليه فرآني أستاذي وأنا أنظر إليه فقال: يا بني لَتَجِدَنَّ غيّها ولو بعد حين فبقيت عشرين سنة وأنا أراعي ذلك الغيّ،فنمت ليلة وأنا متفكر فيه فأصبحت وقد نسيت القرآن وقائل يقول إنّ هذا غي تلك النظرة.

وقال أبو بكر الكتاني رحمه الله: رأيت بعض أصحابنا في المنام فقلت له ما فعل الله بك؟ قال عرض عليَّ سيآتي وقال:فعلت كذا وكذا فقلت نعم فقال وفعلت كذا وكذا فقلت نعم، قال وفعلت كذا وكذا، فاستحييت أن أقر، فقلت له: ما كان ذلك الذنب فقال مَرَّبِي غلام حسن الوجه فنظرت إليه فأقمت بين يدي الله عز وجل سبعين سنة أتصبب عرقا لخجلي منه ثم عفا عني بفضله.

وروي عن أبي عبد الله الزراد أنه رُئِيَ في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنبا واحدا استحييت أن أقر به فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي فقيل له ما كان ذلك الذنب؟ قال: نظرت إلى شخص جميل.

فاحذر أيها المريد بارك الله فيك صحبة من تخشى رؤيتهم على قلبك، وقد قيل فى هذا المعنى:

أيا متق الإله فاحذر من النسا ☆ من النسا لا يسلم من جالس النسا

ثم قال رضي الله عنه:

«إِيَّاكُمْ وَصُحْبَةَ الأَحْدَاثِ»

الأحداث هم صبيان الطريق الذين لم يجربوا الأمور، ولا بلغوا درجة التحقيق فهم أحداث على كل حال، ولو بلغوا في سنهم سبعين سنة؛ **ثم** فسر الأحداث رضي الله عنه فقال: الحدث هو المستقبِل للأمر المبتدئ في الطريق الذي لم يجرب الأمور ولم يثبت له فيها قدم وإن كان ابن سبعين سنة، أما نهيهم رضي الله عنهم عن مخالطة الصبيان المُرْد والاختلاء بهم فذلك معلوم بالضرورة وهو من باب أولى وما أورده المصنف، ذلك من طريق المبالغة في النهي، وقيل أراد بالأحداث كل ما سوى الله، ويكون النهي على هذا أعم، فيطلب من المريد أن يترك صحبة كل من في العالم جليلا كان أو حقيرا، لأن صحبة المخلوق لا تزيد من الله إلا بعدا، فلا فائدة في صحبة العبيد. فالمؤمن إذا أراد أن يصحب فليصحب مولاه ويترك ما دون ذلك، ويربي قلبه على الحق بدل الخلق، لأن الخلق زائل.

كان مولاي العربي الدرقاوي رضي الله عنه يقول لأصحابه: ربوا قلوبكم على ربي، فإن العربي زائل وكل ما خلا الله باطل. قال في الحكم العطائية: «ما صاحبك، إلا من صحبك وهو بعيبك عالم» وليس ذلك إلا مولاك الكريم سبحانه من إلاه حليم، يقبل عبده وهو بعيبه عليم، ماضيه ومستقبله، وهل هذا إلا محض الفضل والكرم، أي شيء يعمل المريد بصحبة العبيد الذين لو أطلعوا على أدنى ما فيه ماانتسبوا إليه. فلا تصحب أيها المريد إلا مولاك الذي إذا أطعته

جزاك، وإذا عصيته أمهلك، وإذا تبت إليه قبلك، وإذا أتيته أتاك، كم عصيته وسترك، وكم جفوته وما جفاك، وكم جهلته وهو معك أقرب إليك من نفسك وأحن عليك من أمك وأبيك، أخرجك من العدم واتحفك بالعلم ولا زال يربي ويرحم، فإذا قلت له ربي يقول لك عبدي أدن مني وتقدم ولو كنت منهمكا في أودية الضلال، اللهم سبحانك من حليم كريم بعبادك رؤوف رحيم.

ثم قال رضي الله عنه:

«نَافِخُ الكِيرِ إِنْ لَمْ يَحْرِقْكَ بِنَارِهِ أَذَاكَ بِشَرَرِهِ»

هذه حكمة بالغة مأخوذة من قوله عليه الصلاة والسلام: **مثل جليس السوء كمثل الحداد إما أحرقك بناره وإلا أذاك برائحته،** هذا مثل المنقطع عن الله المنهمك في أودية المخالفة، فمجالسته ضرر لا نفع فيها وشر لا خير فيه فإن لم يصبك بناره التي هي المعصية أذاك بشرره وبرائحته النتنة لمشاركتك له في الجلوس ورضاك بحاله،والتغيير يحصل بالمجاورة وقد وقع النهي عن مجالسة أهل المخالفة والبدع، لأن الطبع يسرق الطبع والمجالسة مجانسة والعاقل لا يحتاج إلى بيان الضرر في مجالسة السفهاء، فالضرر بَيِّنٌ. وقد قيل في هذا المعنى:

فمن جالس العطار طاب بطيبه ☆ ومن جالس الحداد نال السوائد

والمرء على دين خليله، فمن جالس **قوما** لا يلبث أن يقع في موقعهم، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه،ولهذا يقال:

لاتسأل عن المرء واسأل عن قرينه ☆ فكل قرين بالمقارن يقتدي

فمن كان ذا عقل يفر من مجالسة أموات القلوب فرار الذئب من الأسد، لما يعود عليه من وبالهم. قيل: إن الذاكر مع الغافلين غافل، اللهم إلا إذا علم من نفسه أنه على قدم راسخ، وبمجالسته لهم ينتبهون مما هم عليه وهذا علم لايكون إلا لأهل التمكن في المقام، لما قيل أن العارف إذا تمكن في المعرفة يجوز له أن يجالس السفهاء لهدايتهم.

وقد قيل أيضا لا يضحك في وجه الفاسقين إلا العارف بالله لمصلحة هنالك اما ليسرقهم عن حالهم ويأخذهم من طبعهم إلى أن يصيروا لطاعة الله كما هو مشاهد في سيرة القوم تراهم يتنزلون مع العاصي أكثر من أن يتنزلوا مع الطائع.

وقد اخبرونا عن شيخ مشايخنا مولاي العربي الدرقاوي رضي الله عنه أن بعض اليهود قصدوه لزاويته، وطلبوا منه المبيت، فتلقاهم بالملاطفة والبشاشة وأنواع الإكرام، وأخذ في خدمتهم بيده، وفي تعظيمهم ومؤانستهم بما يستأنسون به من حكايات الإسرائليين والتعظيم لأنبيائهم، واستغرق كل الإستغراق في الأدب معهم، حتى أخذ قلوبهم ومال بهم إلى صحبة الإسلام فلما جن الليل انفردوا وقال كل منهم إن الإسلام أخذ باطني وليس لنا إلا الهروب بديننا، فخرجوا على غفلة من الشيخ، ولما اتى الأستاذ رضي الله عنه تأسف على فراقهم ولام الفقراء على تسريحهم، ولما كانوا في الطريق اجتمعوا ببعض الزوار قاصدين مولاي العربي الدرقاوي، فقالوا لهم: من انتم فقالوا لهم من فقراء الشيخ المذكور، فأخذ اليهود في تعظيمهم وقالوا للفقراء اشكروا الله على ملاقاتكم لمولاي العربي، فلو كان عشرة من مثله في

الوجود لما بقي يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ على الأرض. فانظر بارك الله فيك تنزل هؤلاء السادة كيف يحسنون ويتواضعون مع من يستحق القتل،وكل ذلك منهم لمصلحة يلاحظونها تعشقوا وتولعوا بها،وهي هداية الخلق والشفقة عليهم من الوعيد،لمطالعتهم على ما بين أيديهم من العذاب الشديد، فمن هذه الحيثية تراهم يضحكون ويتلطفون مع من يستحق الزجر وقد يضحكون ويبشون أيضا في وجوه السفهاء من وجهة أخرى،وهي المداراة لقوله عليه الصلاة والسلام: **داروا سفهاءكم**، لما قيل أيضا **دارهم ما دمت في دارهم** وقوله ﷺ: **إننا لنبش في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم.** ولكن لم يتخذهم عليه الصلاة والسلام للمجالسة ولا للمؤانسة. إياك أيها المريد أن تنسى نفسك على ما تقدم وتقول نجالس العوام والسفهاء لهدايتهم، فليس عليك إلا هداية نفسك،فإنك لن تستطيع أن تثبت في مجالسهم على طاعة ربك،فضلا على أن تهديهم،فإن طبعهم يغلب عليك لما هم عليه من رسوخ القدم في مقامهم،النار محفوفة بالشهوات،فسكانها لم يطرقهم طارق يزلزلهم على ما هم عليه، لأن الشهوة تحميهم،وجنتك محفوفة بالمكاره،وأكثر الطوارئ تطرأ عليك لتخرجك مما أنت فيه من عمارة الأوقات ولولا حفظ الله لما رسخت، فكيف بك إذا جالستهم فالكل يستعان عليك، شيطانك ونفسك وابناء جنسك «**شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض**» فلا تلبث ان تسقط من مقامك وتستبدل الدرجات بالدركات، إياك يا أخي أن تتهاون فيما نصحتك به، فإن ذلك مجرب،وقد وقع ما وقع لمن قال سمعت

وهو لا يسمع ، **« وإمـا ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله» . «فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين».**

ثم قال رضي الله عنه:

«مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى صُحْبَةِ مَوْلاَهُ ابْتَلاَهُ اللَّهُ بِصُحْبَةِ العَبِيدْ»

أمر لازم عقوبة من الله لعبده، إذا لم يصبر على صحبته والتوجه إليه فيعاقبه بصحبة الخلق بعد صحبة الحق، وبالنظر إليهم بعد النظر إليه، والأخذ منه والعطاء إليه، فيعود لما كان عليه من الغفلة والقطيعة ورؤية الخلق ويتحمل مشاقهم ويستبدل العز بالذل، والعلم بالجهل، وكل ذلك عقوبة له حيث لم يصبر على صحبة الوحيد ابتلي بصحبة العبيد؛ ألا تصبر يا هذا على صحبة الحق! فإن لك والله في صحبته خيرا كثيرا، فهو نعم المولى ونعم النصير، صاحبك وهو بعيبك عالم، وبضعفك قائم؛ لما في الحكم العطائية: ما صاحبك إلا من صحبك وهو بعيبك عالم وليس ذلك إلا مولاك الكريم، وهل صحبة العبيد تغنيك عن هذا الصاحب الحليـــــم.

صاحب إذا ارضاك يغنيك فضله ☆ لكنه شديـد الاغـارة في العهـد

فحافظ على صحبته وإياك أن تناقض عهده، لِئَلاَّ تكون كقوم موسى حيث لم يصبروا على الطعام الواحد وقالوا فيما حكى الاله عز وجل عنهم **فَادْعُ لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من**

بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. الآية. فكذلك من لم يصبر على صحبة الحق،واستبدلها بشهود الخلق،فرتبة الخلق لا تفوق عن العدس والبصل والثوم بالإضافة إلى الحق،فهذا مسلك الاسرائليين حيث يستبدلون العز بالذل، فأين مسلك الموحدين العاملين على صحبة الحق، فمن طلب شيئا زائدا على الله نادته حقائق الحضرة الإلهية **أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير** الخ الأية. فالشهوات النفسانية والطباع البشرية مقرونة بالذل، منوطة بالمسكنة،فهذا جزاء من لم يصبر على صحبة مولاه؛ إياك يا أخي والميلان عن صحبته، بل اصبر وصابر ورابط حتى يأخذ بيدك وينقلك من وجودك ويدخلك لحضرته،فتصير تتنعم بنظرته وتتلذذ بمشاهدته،فحينئذ لا تحتاج إلى الصبر، فالصبر يكون مع تحمل المشاق،وأما عند وجود التنعم يستبدل مكانه شكرا لأنك في نعمة قليلة الوجود أعز من الكبريت الأحمر والمسك الاذفر وأهلها أقل من القليل والله على ما نقوله وكيـــل.

الفصـــــل الثالـــــث

في النهي عن صحبة المبتدعين

قال رضي الله عنه:

«أَضَرُّ الأَشْيَاءِ صُحْبَةُ عَالِمٍ غَافِلٍ، أَوْ صُوفِيٍّ جَاهِلٍ أَوْ وَاعِظٍ مُدَاهِنٍ»

نعم لم يبق ضرر أعظم على المريدين من صحبة هؤلاء الأصناف، أجارنا الله من شرهم، والعالم الغافل هو المتجمد على ظاهر النقول، المتغفل عما وراء ذلك، زاعما أن الغاية ما حصل عليه، ولم يعلم أن للقوم أسرارا انفردوا بها، فهذا يكون أضر الأشياء على من صحبه، لأنه يقتدي به من حيث علمه، وربما يبرهن له أن الإسلام ما نحن بصدده لا زائد عليه، فيقتدي به صاحبه ويأخذ بظاهر الكتاب والسنة ويتغفل عَمَّا كانت عليه بواطن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من تصفية الأحوال وحسن المنوال وقد يقتدي بمثل هذا أغلب الناس لتصدره في منصب العلم والتعليم، فيكون عائقا لمن صحبه، لغفلته عما وراء المنقول والمعقول. قال سلطان العاشقين رضوان الله عليه:

فثم وراء النقـل علم يـدق عـن ☆ مـدارك غايات العقول السليمـة

تلقيتـــه مني وعني أخذتـــه ☆ ونفسي كانت من عطائي مـــمدتي

وقال أيضا:

تنقـل إلى حـق اليقين تنزهـا ☆ عن النقل والعقل الذي هو قاطع

ولو يعلم العالم يقينا أن وراء المنقول والمعقول سر مكنون قد حازه العلماء بالله لما وقف دون عزه. قلت:

علم كان مكتوما عن الخلق جملة ☆ وسر كان مصونا باللفظ لا يتلى
عزيز حوى عزيزا حل في قلبه ☆ ولله العزة والرسول وللولا

قال عليه الصلاة والسلام: **إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا أظهروه انكرته أهل الغِرَّةِ بالله.**

فتحصل من هذا أن من العلم ما هو مكنون، أي ليس بمتعاط بين الخلائق،وإن كان كذلك فلا ينبغي للمريد أن يصحب العالم المتجمد على ظاهر الأوراق كما تقدم،وان صحبه فليصحبه ليأخذ من عنده أحكام الشرع ،لا ليقتدي به في الحال أو الطبع.

قال سلطان العاشقين رضي الله عنه:

ولا تك ممن طيشته دروسه ☆ بحيث استقلت عقله واستقرت

فإذا عمل العالم بعلمه،لا ينبغي له أن يقف عند ما علم،بل يطلب الزيادة عملا بقوله عز من قائل: **وفوق كل ذي علم عليم.** فالعلم لا ينتهي في الخلق إنما ينتهي في الخالق، ومنتهى العلم إلى الله العظيم.

وأين علماؤنا من العلم المكنون والسر المصون،فوالله لا يكون العالم عالما إلا إذا صحب القوم وشرب من كأسهم،وإلا فهو بعيد عن العلم، وليس له إلا مجرد الإسم.

قال الأمير عبد القادر الجزائري رضي الله عنه: بعد شرابه من كأس القوم رضوان الله عليهم:

ولو شمت الأعلام في الدرس ريحها ☆ لماطاش عن صوب الصواب لهم فكر
فيابعدهم عنها ويا بئس ما رضوا ☆ فصدهم قصد وسيرهم وزر
هي العلم كل العلم والمركز الذي ☆ به كل علم كل حين له دوز
فلا عالم إلا خبير بشربها ☆ ولا جاهل إلا جهول به غر
ولا غبن في الدنيا ولا من رزية ☆ سوى رجل عن نيلها حظه نزر
ولا خسر في الدنيا ولا هو خاسر ☆ سوى واله والكف من كأسها صفر

ومما يضر المريد صحبة صوفي جاهل، وهذه داهية على المريد أكبر من أختها، والمراد به شيخ مدعي الطريق وكيفيات السير إلى الله،وليس له من معرفة الطريق إلا مجرد القول، فهذا منقطع وقاطع عن الله،وذنبه أعظم من غيره،لقوله عليه الصلاة والسلام: **أشد الناس عذابا يوم القيامة من كان الناس يظنون فيه خيرا وهو لا خير فيه،** أي مدعي الطريق متظاهر بما للقوم وليس له إلا مجرد الدعوى فهذا هو الجاهل المراد به في قول المصنف: وأما الجاهل بأحكام الشرع فلا يغتر به المريد في الغالب،ولا يطلق عليه صوفي أيضا كما أخبر به المصنف،فكان تحذيره عائدا على صحبة مدعي الطريق الآخذ من القوم مجرد الإنتساب وإتخاذ السبح والعمائم والعصي،فيكون التشبه بهم في الظاهر والمبيانة لهم في الباطن، ولبعضهم في هذا المعنى:

ليس التصوف عكازا ومسبحة ☆ كلا ولا الفقر رؤيا دلقك الترف
وان تروح وتغدو في مرقعة ☆ وتحتها موبقات الكبر والسرف
وتظهر الزهد في الدنيا وأنت على ☆ عكوفها كعكوف الكلب في الجيف
الفقر سر وعنك النفس تحجبه ☆ فارفع حجابك تجلو ظلمة السدف

وفارق الجنس وافن النفس في نفس ★ وغب عن الحس واجلب دمعة الأسف

وقد قلت في مدح طريق القوم واهلها:

يــاجوهرة عزت وعز مطلبهــا ☆ ويا طريقا جلت عن سير البهائم

فأهلهــا أهل للفاضــائل كلهــا ☆ وليس لهم وصف ما سوى المكارم

وقد قامت الأنـدال ظنّـاً بجهلهم ☆ أن طريـق القـوم بلبس العمائم

وأن يــاتوا زمرا على أي حالــة ☆ وقـــد أبى شرع الله كل المــآثم

لاخير في كثير مــن نجــواهم إلا ☆ مــن أمر بــالمعروف دون المظـالم

فكل من اقتدى بمثل هؤلاء يكون له عائق في الطريق وضره أقوى من نفعه، فلهذا ينبغي للمريد أن لا يصحب من كانت هذه سيرته ومن علامة هذا المدعي أنه يقول ان الوصول إلى الله بعيد، صعب على أمثالنا وينكر على من يقول بقربه ،كأنه لم يسمع قوله عز وجل: **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب** الخ، ولكن ذلك لبعده فكل إناء بالذي فيه ينضح. قلت:

فإن صادفت الداعي محقا في زعمه ☆ مشيرا إلى التحقيق والمقام الأعلى

فإياك والإهمال فافحص عن قولـه ☆ وسله عن الوصول هل يعرف الوصّلا

فإن أشــار يالبعــد ذاك لبعـــده ☆ وإن أشار بالقرب فاعتبره أهلا

وسيأتي في كلام المصنف رضي الله عنه ما يدل على معرفة الشيخ الكامل في الفصول الآتية، وأما صحبة الواعظ المداهن قد يفقه بها المريد في الغالب إن صدق الله في سره وجهره،وكان فطنا يفهم من الواعظ كيف يحرف الكلم عن مواضعه ويلفق الأقوال بأضدادها وهذا الواعظ يعود الضرر عليه أكثر مما يعود على غيــــره.

ثم اعلم أن فساد العامة بسبب وجود العلماء المداهنين،حتى تجد الواعظ مثل الطباخ يلون في الأطعمة ليعطي كل أحد ما يحمل قلبه ويوافق طبعه،وكان من حقه أن يكون كالطبيب يلون الأدوية حسب مقتضى الأمراض ولو كان المريض يجزع من استعمال الدواء أولا،فإنه يعود عليه بالراحة فيستحسنه ويشتاق إليه ثانيا،فهذا مثل القائل بالحق المحافظ على نفع الخلق،وأما الواعظ المداهن لا يسري كلامه في الخلق لتلبسه بظلمة المعصية، وهي المداهنة ويكون كلامه لا نتيجة له، **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينـفع الناس فيمكث في الأرض.**

وكل كلام يبرز إلا وعليه كسوة القلب الذي برز منه، وان الكلام اذا خرج من القلب وقع فيه، واذا برز من اللسان فبعكسه. وصحبة المداهن على كل حال مضرة على المريد لما قيل: لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله. وقيل:

فاختر لصحبتك من أطاع ☆ فإن الطباع تسرق الطباع

ثم قال رضي الله عنه:

«بِفَسادِ العَامّةِ تَظْهَرُ وُلاَةُ الجُوْرِ وَبِفَسَادِ الخَاصَّةِ تَظْهَرُ الدَّجَاجِلَةُ الفَتَّانُونَ فِي الدِّينِ»

فساد العامة يكون بوجود المخالفة والعصيان،وما أشبه ذلك، وذلك سبب في تولية ولاة الجور عليهم لقوله عليه الصلاة والسلام: **أعمالكم عمالكم.** وهذا لا يضر الخاصة، لأن العامل من حيث هو لا

يتصرف في بواطن المخلصين لما هم فيه من اليقين التام،لقوله عز وجل: **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا،** أي على ما في بواطنهم،وأما ظواهر الأجسام فنعم لهم سبيل، كما هو مشهود فيما مضى وفي الحاضر، لأن الحاكم قد يتصرف في الولي بتصريف الحق ومشيئته، **وكم من نبيء قتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم،** وأما فساد الخاصة وهم المدعون بالإرشاد فبفسادهم تظهر الدجاجيل في الدين،وهم أكبر الدجاجيل لأنهم يأخذون الخلق من باب الدين فيغتر بهم كل ضعيف **«ويحسبون أنهم يحسنون صنعا»** أولئك هم الكاذبون،وهؤلاء الآكلون الدنيا بالدين يرقعون دنياهم بدينهم فلا دينهم يبقى ولا ما يرقعون، متزينون بالإصلاح محشوون بالطلاح، يدعي احدهم الوصول وهو مفصـــول قلـــت:

تسمع لسانا يتلوا ما ليس في قلبه ☆ كأنه ذو علم أحـــاط بمـــا قـــالا
يموه عنـــد العـــوام يـــدعي كمثله ☆ وهو عند الخواص لا يملك أصلا
ولو لا كشف الإلـه ينبي عن حاله ☆ لكنا من حسن الظن حسبه أهلا

وقيل فى هذا المعنى:

أما الخيـــام فإنهـــا كخيـــامهم ☆ وأرى نـــساء الحي غير نسائها

ولهذا قال الإمام الشعراني رضي الله عنه في الأنوار القدسية: أحذر أن تقتصر على شيخ واحد في هذا الزمان فإنه تحجير عليك وقلة نفع لك، وبسبب وجود هؤلاء ينقطع عن المريدين المنوال، ويغتلس عليهم الحال ويكثر بينهم القيل والقال ويضيعون أهل زمانهم بوجودهم،لا يدرون معنى للطريق ولا منهجا للتحقيق.

يأخذون من الطريق مجرد الإسم،ومن المقام مجرد العلم.

ترى لأحدهم لسانا بلا قلب، وتراهم يتعلمون الحقائق من الاوراق ويتملقون فيها بالاشداق، ولم يعلموا ان التصوف كله اخلاق.

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه: اعلم أن متصوفة أهل هذا الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزي والمنطق والهيئة من السماع والرقص والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وادخاله في الجيب كالمتفكر وتنفس الصعداء وخفة الصوت في الحديث إلى غير ذلك، فظنوا بذلك أنهم منهم،فلم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الاثام الخفية والجلية، واذا كان مثل هؤلاء في عصر الغزالي والامام الشعراني فكيف بعصرنا هذا، فان الامر كما ذكر. اكثر المنتسبين يتداولون حكاية المتقدمين ويقولون كان سيدي فلان هكذا يفعل والأخر كذا من أمره،والسلف الصالح كان من نعته،ولا يأخذون من سيرة الصلحاء إلا مجرد الحكاية،فلا جرم بفسادهم تظهر الدجاجيل في الطريق ويكثر فيها التفريق ويخفى المقصود منها ولن يبقى إلا مجرد الإسم والإجتماع على أي وجه كان،فينعدم النتاج وينحرف المزاج،وأي دجال أشد على المريد من هؤلاء الذين ضاعت بوجودهم الأيام وتقاضت الأعوام،فهذا حال من فاتته المنة من ربه واشتغل بما لا يعنيه، حيث أراد أن يصل إلى المقام بمجرد الكلام ولو عمل بما علم لأورثه الله علم ما لم يعلم. وفي هذا قلت:

ألا يعتني بمـا هـو بصـدده ☆ ويروي ما لديه عقلا كان أو نقلا
وليعمل بما له يرث ما لم يعلم ☆ حديثا عن سيد النبيئين مرسلا

ألهمنا الله والمسلمين لما فيه صلاح الدارين، وحفظنا من الفئتين في الدنيا والدين، ولا حولا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم قال رضي الله عنه:

«مَنْ رَأَيْتَهُ يَدَّعِي مَعَ اللَّهِ حَالاً لاَ يَكُونُ عَلَى ظَاهِرِهِ شَاهِدٌ فَاحْذَرْهُ»

أي إذا رأيت إنسانا يدعي مع الله حالا لم يكن له شاهد على ظاهره فاحذره لئلا يصيبك من شره، لأن المجالسة مجانسة وكيف يدعي أن له حالا مع الله وهو لم يظهر على ظاهره أثره، وقد قيل: ان الظاهر عنوان الباطن، وما فيك يظهر عليك، ولا ترشح الأواني إلا بما سكن، ولهذا يقال: لا تأخذ من الفقير المقال، وإنما خذ منه الحال، وقد يتزين الفقير بأقوال القوم واصطلاحاتهم حتى إذا قست سيرته ومقاله على ظاهر حاله ولم تجد له شاهد، فاحذره، لأن العارفين بالله لهم سِمَةٌ في الظاهر تنبي عما لهم في الباطـن.

وقد قال تعالى: **ويتلوه شاهد منه**، فالعارف المتمكن تشهد عليه جوارحه بصدقه في عبوديته، فهي تنطق وتصدقه بلسان الحال، كما تنطق يوم القيامة وتشهد عليه بلسان المقال، **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.**

العارف كله عمل بلا مقال إلا إذا كان منتصبا للتذكير، أو تقول قلب بلا لسان وإن كان ولا بد فقلب ولسان،دليل الشهود الوقوف مع الحدود، ودليل رفع الحجاب القيام بالآداب.

وحاصل الأمر من لم يكن له شاهد على ظاهره موافق لدعوته فلا فائدة في صحبته. قيل في هذا المعنى:

أتيت لقاضي الحب قلت أحبتي ☆ جفوني وقالوا أنت في الحب مدعي
وعندي شهود للصبابة والأسا ☆ يزكون دعواي إذا جئت أدعي
سهادي ووجدي واكتآبي ولوعتي ☆ وشوقي وسقمي واصفراري وادمعي

فإن لكل حق حقيقة، ولكل صدق بيانا،ومن لم يكن على ظاهره شاهد موافق لدعوته في الباطن فهو مغرور يخشى على من صحبه،وقد يوجد في الطريق ممن هذه سيرته، تراه يتكلم بكلام تتفطر منه السموات،وتندك لسطوته الجبال،وليس له من سيرة القوم إلا مجرد القول. الدعوى دعوى الحلاج والفعل فعل الحجاج **كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون.**

قال شيخ هذه الطائفة مولاي العربي الدرقاوي رضي الله عنه: طريقتنا هذه طريقة الأسود،وقد يوجد فيها الخنازير والقرود، فالحذر كل الحذر ممن كان موافقا للقوم في المقال،مخالفا لهم في الحال، والله يحفظنا وهذه الطائفة من الزيغ والضلال.

ثم قال رضي الله عنه:

«مَنْ اكْتَفَى بِالكَلَامِ فِي العِلْمِ دُونَ الإِتِّصَافِ بِحَقِيقَتِهِ فَقَدْ تَزَنْدَقَ وَانْقَطَعَ»

أي من اكتفى بعلم القوم دون الإتصاف بحقيقته من الأحوال السنية فقد تزندق، لأن علمهم رضي الله عنهم يشير من حيث ظواهر أَلْفَاظِهِ إلى إسقاط التكليف، فمن عمل بمقتضى ذلك دون الإتصاف بحقيقته فقد تزندق، ولهذا قالوا رضي الله عنهم: من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، والعمل بحقيقته هو التخلق بأخلاقه عليه الصلاة والسلام. ومن لم يتصف بما ذكرنا فليس له إلا مجرد الكلام،والكلام دون المقام حرام،وليس المراد من كلام القوم إلا الإتصاف بحقيقته،وحقيقته لا تخفى إلا على مضل وكل مؤمن إلا ويعلم ما للقوم من الأحوال السنية وكل ما يبرز من الحقائق على ألسنتهم إنما هو ينبوع من أحوالهم ورموز تشهد لهم بصدقهم.

ولبعضهم رضي الله عنه:

ألا إن الرموز دليل صدق ☆ على المعنى المغيب في الفؤاد

وكل العارفين لهم رموز ☆ وألغاز تدق على الأعادي

وحاصل الأمر، أن علم القوم المأخوذ عن كشف مع الإتصاف بحقيقته هي الولاية نفسها،كما أن الكلام دون الإتصاف بحقيقته هي الزندقة نفسها.

قيل لأبي القاسم الجنيد رضي الله عنه: إن أناسا زعموا أنهم وصلوا فسقطت عنهم التكاليف، قال رضي الله عنه: وصلوا ولكن

إلى سقر، وعليه ان الحقيقة منوطة بالشريعة **لا** انفكاك لبعضهما عن بعض،لما قيل: ان الحقيقة عين، والشريعة أمرها، فمن خالف الأمر خالف العين. وكان يقول أستاذي سيدي محمد البوزيدي رضي الله عنه: الحقيقة جسد والشريعة أعضاؤها، وهل يليق بالجسد أن يكون بدون أعضائه، ثم تَلاَ هذه الآية: **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله.**

التصوف كله أحوال،ومن أخذ بالأقوال دون الأحوال والأعمال فارفضه فإنه دجال. **كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون.**

ومما يوجب الأسف،أن التصوف كان في رتبة سنية وعن علوه قصرت يد المدعين به،لأنه كله عمل إلى أن صار ينزل شيئا فشيئا حتى صار في وقتنا هذا كله أقوالا، تجد الناس في اصطلاحاته يداولونه فكان عندهم من جملة النقول، بل جعلوه فنا مستقلا يتدارسونه. ومن العجب أنهم يحققونه حتى يشك أنهم يذوقونه مع ما يستعملون له من اللباس المناسب لذلك، والتصنع المطابق،ومن أجل هذا اختفى المحق في المبطل حتى كاد الأمر يندرس. وللإمام المقدسي رضي الله عنه:

ذهب الرجال وحال دون مجالهم * زمر من الأوباش والأنذال
زعموا بأنهم على آثارهم * ساروا ولكن سيرة البطال
لبسوا الدلوق مرقعا وتقشفوا * كتقشف الأبطال والأبدال
قطعوا طريق السالكين وأظلموا * سبل الهدى بجهالة وضلال
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى * وحشوا بواطنهم من الأدغال

وقال غيره

بالذوق والشوق نالوا عزة الشرف * لا بالدلوق ولا بالعجب والصلف
ومذهب القوم أخلاق مطهرة * بها تخلقت الأجسام في النطف
صبر وشكر وايثار ومحصه * وانفس تقطع الأنفاس باللهف
والزهد في كل فان لا بقاء له * كا مضت سنة الأخيار والسلف
قوم لتصفية الأرواح قد عملوا * وسلموا عارض الأشباح للتلف
لا بالتخلق في المعروف تعرفهم * ولا التكلف في شيء من الكلف
ما ضرهم رث أطمار ولا خلق * كالدر ما ضره محلولق الصدف
واشقوتي إن تولت أمة سلفت * حتى تخلفت في خلف من الخلف
ينمقون تزاوير الغرور لنا * بالزور في القول والبهتان والحلف
ليس التصوف عكازا و مسبحة * كلا ولا الفقر رؤيا دلقك الترف
أو تروح وتغدو في مرقعة * وتحتها موبقات الكبر والسرف
وتظهر الزهد في الدنيا وأنت على * عكوفها كعكوف الكلب في الجيف

فتحصل من هذا أن التصوف كله عمل، وليس عليك أيها المريد إلا أن تتخلق بأخلاقهم ولا تتكلف أن تحفظ أقوالهم، لأن القول لا يغني عنك من الله شيئا.

ثم قال رضي الله عنه:

«إِيَّاكُمْ وَالمُحَاكَاة قَبْلَ أَحْكَام الطَّرِيقِ وَتَمَكُّنِ الأَحْوَالِ، فَإِنَهَا تُقْطَعُ بِكُمْ»

أي إياكم أيها السائرون المتوجهون من الكلام في الطريق

والمحاكاة والتفنن في المذاكرة قبل تحقق المقام وتمكن الأحوال، فإن ذلك يقطع بكم عن الوصول إلى حقيقته، فمن تعلم المذاكرة ليكتفي بها دون أن يطلب الوصول، فهو مغرور، وطريق القوم مبنية على تحقق المقام لا على مجرد الكلام، وقد كنت سألت بعضا من إخواننا جزاهم الله خيرا قبل تمكني في مقام المعرفة على مذاكرة سمعتها اردت أن نأخذها منه فقال لي: اذكر الله تعرف ذلك فإن طريقتنا ليست بالقول. وقد قال لي أستاذنا الشيخ سيدي محمد البوزيدي أن أخاه في الله سيدي الحاج محمد الهبري رضي الله عنهما سأله حالة اشتغاله بالإسم الأعظم عن مقام الفردانية فقال له: إن الفردانية تعرفها حين تطرأ عليك. ومن النصيحة أن لا يجيب المنتهي المبتديء حالة سيره عن مثل ما حجب عنه،لئلا يأخذ ذلك علما ويستغني عن الذوق، وينقطع عن الزيادة كما هو مشاهد في زماننا،حتى صارت طريق القوم تؤخذ من الأوراق. ومن ذلك ما قال بعض الأصدقاء: أنه طلب من شيخه أن يسيره في الطريق ويطلعه على ما عند القوم من الفنا والبقا. فأجابه إنني سأقول للسيد فلان أن يجعل لك وقتا ويقرئك الفنا والبقا فاستحسن المريد واستبشر بما قال له الشيخ، ولما أخبرني بذلك قلت له: يا أخي إن الفنا والبقا ينبغي له أن يطرأ عليك لا تسمعه بأذنيك وكل ذلك وقع لهم بسبب تعلم المذاكرة في الطريق بدون أن يطلبوا ما وراء ذلك من التحقيق، قلت في حقهـــم:

وهل ينفع التشديق بالقول والثنا * وهل ينفع التزويق في تحصيل العلى
وهل ينفع المريض ما سوى طبه * وهل ينفع الغريب شيء سوى الأهلا
فإن لفقت الأقوال تحكى كقولهم * فهذا شهد الزنبور ابن عسل النحلة
فياليت شعري ما الحامل وما الذي * دعاه هذا الزور به تحملا
فيا له من أحمق قد ضاع عمره * يروم جذب النجوم بيده الشلا
ألا يعتني بما هو بصدده * ويروى ماالديه عقلا كان أو نقلا
وليعمل بما علم يرث ما لم يعلم * بهذا جاء الحديث عن النبي يتلى
وليات بيوت الله من مقدمها * وليجنح عن الكذب لا يحسبه سهلا

ومثل من أراد أخذ علم القوم من الأوراق كمن أتى إلى الإنسان وقال له: أريد حج بيت الله الحرام، فقال له: سيقرأ عليك فلان المناسك ويجزيك عن زيارتك للبيت، وهل القول ينوب عن الفعل ؟ فإياك أيها المريد أن تتكلف للكلام بالمقام قبل أن تصل إليه فتنقطع عنه بسبب معرفتك لألفاظه.

ثم قال رضي الله عنه:

«إِذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ تَظْهَرُ لَهُ الكَرَامَاتُ وَتَنْخَرِقُ لَهُ العَادَاتُ فَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ، وَلَكِنْ انْظُرُوا كَيْفَ هُوَ عِنْدَ امْتِثَالِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ»

أي فإذا وجدتموه على قدم صدق فالأمر واضح، وإذا وجدتموه بخلاف ذلك فرتبته في الشرع معلومة لأن الكرامة لا تكون كرامة إلا إذا كانت عن استقامة وإلا فهي استدراج لقوله عليه الصلاة

والسلام: **إذا رأيت الله يعطي العباد مايشاؤون وهم مصرون على المعاصي فاعلم ان ذلك استدراج منه لهم**؛ ثم تلا **(فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء)** الخ الآية.

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة، ومجانبة الدعاوي والمخادعة فمن اعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مفتر كذاب، ليس له حظ في العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله ومن الله فصاحبها مستدزج مغرور ناقص، أو هالك مثبور.

ثم اعلم أن الكرامة هي معقولة في طريق القوم، ومما يجب الإيمان بها، إلا أن الولاية لا تتوقف عليها إنما تتوقف على الكشف الإلهي المتعلق بذات الله وصفاته مع القيام بما يجب على العبد والوقوف على حدود الشـــرع.

وأما الكرامة فشيء زائد نعمة من الله على عبده خلقها ونسبها إليه، يظهرها الله متى شاء على الولي وليس للعبد كسب فيها ولا اختيار، وفي الغالب يفقدها من طلبها، ويجدها من زهد فيها.

قال بعضهم ربما فقدها أهل النهاية في نهايتهم، ووجدها أهل البداية في بدايتهم، وفائدتها إما أن تعود على من ظهرت عليه وإما على غيره فإن عادت على من ظهرت عليه فإنها تفيده اليقين على ما هو عليه، والعارف المتمكن لا يحتاج لذلك لما هو

عليه من رسوخ القدم والحق المبين،فالجبل لا يحتاج إلى من يرسيه،وقد ذكرت الكرامة عند سهل بن عبد الله رضي الله عنه فقال: وما الآيات وما الكرامات ؟ وهي شيء ينقضي لوقته ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود،ومنتهى الفائدة أن الكرامة إذا صدرت من المريد عن استقامة فهي له، وإن صدرت عن عدم استقامة فهي عليه،ولا ينبغي له أن يغتر بذلك،فقد صدر من السحرة ما تعجز عنه العقـــول.

قيل لأبي يزيد البسطامي رضي الله عنه:ان فلانا يمشي على الماء، فقال: الحيتان في الماء والطير في الهواء أعجب من ذلك.

وقال سيدي أبو العباس: ليس الشأن من تطوى له الأرض،إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه،فإذا هو عند ربه قلت: فمن كرامة الله على عبده أن يدخله لحضرته وأن يوفقه لطاعته **فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون.**

ثم قال رضي الله عنه:

«الدَّعْوَى مِنْ رَعُونَةِ النَّفْسِ وَالمُدَّعِي مُنَازِعٌ لِلرُّبُوبِيَّةِ»

الدعوى من حيث هي من رعونة النفس ومن بقيتها. فالإنسان في ذلك منازع للربوبية ومضاد لها من دعواه الوجود لنفسه وذلك من أعظم الذنوب عند القوم وهو عين المنازعة المخبر بها

عليه من رسوخ القدم والحق المبين،فالجبل لا يحتاج إلى من يرسيه،وقد ذكرت الكرامة عند سهل بن عبد الله رضي الله عنه فقال: وما الآيات وما الكرامات ؟ وهي شيء ينقضي لوقته ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود،ومنتهى الفائدة أن الكرامة إذا صدرت من المريد عن استقامة فهي له، وإن صدرت عن عدم استقامة فهي عليه،ولا ينبغي له أن يغتر بذلك،فقد صدر من السحرة ما تعجز عنه العقـــول.

قيل لأبي يزيد البسطامي رضي الله عنه:ان فلانا يمشي على الماء، فقال: الحيتان في الماء والطير في الهواء أعجب من ذلك.

وقال سيدي أبو العباس: ليس الشأن من تطوى له الأرض،إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه،فإذا هو عند ربه قلت: فمن كرامة الله على عبده أن يدخله لحضرته وأن يوفقه لطاعته **فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون.**

ثم قال رضي الله عنه:

«الدَّعْوَى مِنْ رَعُونَةِ النَّفْسِ وَالمُدَّعِي مُنَازِعٌ لِلرُّبُوبِيَّةِ»

الدعوى من حيث هي من رعونة النفس ومن بقيتها. فالإنسان في ذلك منازع للربوبية ومضاد لها من دعواه الوجود لنفسه وذلك من أعظم الذنوب عند القوم وهو عين المنازعة المخبر بها

في قول المصنـــــف.

قيل: أن ربيعة العدوية رحمة الله عليها تلاقت مع بعض الصالحين فسألته عن حاله فقال لها: انه سلك مسلك الطائعين وأنه لم يذنب منذ خلقه الله فقالت له: ويحك ياولدي وجودك ذنب لا يقاس به ذنب. وقد قيل في هذا المعنى:

إذا قال ما أذنبت قـالت مجيبـة * وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

وهذا الذنب لا يطلع عليه إلا العارفون بالله وقد وجدوا عقوبته أعظم العقوبات، فمن عقوبة صاحبه أنه مطرود من الحضرة الإلهية فما دام مرتكبا لهذا الذنب فهي محرمة عليه إلا إذا خرج من وجوده وتبرأ منه وعزم أن لا يعود إليه،ومن لم تسخ نفسه بالخروج عنه طمس عليه،وبقي منازعا للربوبية إلى أبد الأبد، لأنه حاز ملك الغير ظلما وجورا. **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا.**

زل يا أخي عن وجودك،واخرج عن شهودك،واترك الكل لله وكن معه كأن لم تكن. قال أستاذنا سيدي محمد البوزيدي رضي الله عنه:

زل منـــك عنـــك لتبقى ببقـــاه * إذا تحيد نفسك ما تجـد إلا الله

قيل أن موسى عليه الصلاة والسلام سأل الحق في مناجاته بقوله: **كيف الوصول إليك؟فقيل له: دع نفسك وتعال.** فلو ألقيت الانقياد يا أخي إليه وسلمت وجودك لوجوده وكنت معه بلا أنت لنفخ فيك من روحه وخلفك في خلقه،وصار أمرك بأمره ونهيك بنهيه، بل كلك منه وإليه، ليس لك نسبة معه في الوجود،

متى وجدت ومن أي عالم أتيت حتى نازعته في الوجود،لا علم لك ولا خبر أتاك إنما وجدت نفسك كما وجدت أعمالك في هذا العالم، وإذا باللسان ناطق والعين باصرة واليد باطشة والرجل ماشية وهكذا بقية الصفات والجوارح ،حتى الآن لم تدر من المحرك لك في ذلك،إنما أنت إذا هممت بحركة تجدها مقرونة باهتمامك، فهل لك خبر بذلك،أم لك قوة عليه؟ ومن هو المحرك والمتحرك؟ فلو انصفت من نفسك ورجعت عن غيك لقلت **وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا،** ما أغفلك عن آيات الله بأجمعها، فلو انتبهت لما أنت عليه لانزعجت وطشت وحقك أن تنزعج ،وفي انزعاجك من القربات مالا يوجد في عمل الثقلين لقول المصنف فيما سيأتي، فانزعاج القلب لروعة الانتباه ارجح من أعمال الثقلين، انزعاج القلوب من سجن الغفلات وتشوفها إلى فضاء الانتباه ارجح عند الله من عمل الثقلين، لأن قدر الهمة على قدر تعلقها، وقد تعلقت همة صاحب هذا القلب بالله وبالوصول إليه، فكان انزعاج القلب مما هو عليه من شهود الأكوان وضيق المكان يغنيه في العمل لصلاحيته واستحقاقه التقدم لحضرة الله بسبب تشوفه لذلك.

فمن احب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن تقرب منه شبرا تقرب إليه ذراعا، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، فكان ذلك الإنزعاج سببا في قربه لأنه من عمل القلوب فكان ارجح من عمل الثقلين. وقيل في هذا المعنى:

يـا مهجتي ذوبي إليــه صبابــة * ويا خاطري عرج إليه لا تركنـا

الدنيا سجن المؤمن، ومن لم ينزعج من السجن فهو إما ميت القلب وإما لجهله بما وراء ذلك، ولو شهد المنازل لا يرضى بالمزابل.

ثم قال رضي الله عنه:

«المُدَّعِي مَنْ أَشَارَ إِلَى نَفْسِهِ»

المشير إلى نفسه منقطع عن ربه مدع بما ليس فيه، إذ لو كان عارفا بالله لكانت إشارته له في كل وقت وحال، لما هو فيه من التعظيم والإجلال. قال في الحكم العطائية: المؤمن يشغله الثناء على الله تعالى عن أن يكون لنفسه شاكرا، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرا، فمن تحقق بعظمة الألوهية لم يجد لنفسه بقية. وقد قلت في هذا المعنى:

أشرت إلى نفسي وجدت بدهـا * فقلت من المشار ومن ذا يشير

فهـل الحـق كان يشير لنفســه * فــألهمني صمتــا والحــال خبير

ثم قال رضي الله عنه:

«إِنَمَا حُرِمُوا الوُصُولَ بِتَرْكِ الإِقْتِدَاءِ بِالدَّلِيلِ وَسُلُوكِهِمْ إِلَى الهَوَى»

أي بسبب ترك اقتدائهم بالواصلين وعدم صحبتهم للعارفين

حرموا الوصول حيث لم يأتوا البيوت من أبوابها وسلكوا على اهوية أنفسهم ولنا في ذلك:

فما حرموا الوصول إلا لعلة * تركهم اصول السير ميلهم للهوى
فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم * وجدوا في سيرهم لله بلا بلوى
فهو أقرب إليهم من أنفسهم * واحد بلا شيء دونه ولا سوى

ما من مؤمن إلا ويريد الوصول إلى الله لكن كما يريد هو بهواه لا كما يريد مولاه، هون عليك أيها المسكين،فقد ضللت عن الطريق فاسمع لإشارة ذوي التحقيق:

فقمتَ مقاما حط قدرك دونه * على قدم عن حظها ما تخطت
ورمتَ مراما دونه كم تطاولت * بأعناقها قوم إليه فَجُذَّتِ
أتيت بيوتا لم تنل من ظهورها * وأبوابها عن قرع مثلك سدت
وبين يدي نجواك قدمت زخرفا * تروم به عزا مراميه عزت
وجئت بوجه ابيض غير مسقط * لجاهك في داريك خاطب صفوتي
ولو كنت بي من نقطة الباء خفضة * رفعت إلى ما لم تنله بحيلة

فلو سلكوا السبيل وطلبوا الدليل لقوله عليه الصلاة والسلام: **التمس الرفيق قبل الطريق**، لوجدوا الحق أقرب ممن ينهض إليه،وحيث اكتفوا بأنفسهم واقتدوا بأهوائهم فأضلهم الله على علم ووكلهم بأنفسهم،وصار كل منهم يشير إلى نفسه متخذا إلهه هواه مُكْتَفٍ بما هو عليه من القطيعة والحرمان،وتجده يشير إلى نفسه أنه هو من أهل المقامات والعرفان وما هم إلا في ريبهم يترددون ألهمنا الله والمسلمين لما فيه صلاح الدارين آمين.

الفصل الرابع

في تعريف شيخ التربية وبعض أوصاف المريد

قال رضي الله عنه:

«مَنْ لَمْ يَأْخُذِ الأَدَبَ مِنَ الْمُتَأَدِّبِينَ أَفْسَدَ مَنْ يَتْبَعُهُ»

ذكر أن المريد لا بد له من شيخ في الطريقة يسيره ويعلمه كيفية الإقبال على الله والإدبار عما سواه ويطلعه على رعونة نفسه وعمائها،ومن لم يكن له في الطريق دليل يخشى عليه التعطيل. قال أبو علي الثقفي رضي الله عنه: لو أن رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا برياضة من شيخ أو إمام أو مُؤَدِّب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه من آمر له اوناه يريه عيوب نفسه ورعونة أعماله، لا يجوز الإقتداء به في تصحيح المعاملة، أي ومن اكتفى في الطريق بعقله ورأيه وزعم أنه يحصل على شيء بدون مرشد فيكون هالكا في نفسه مضرا بغيره،وهو قوله:أفسد من يتبعه. ومن لم يكن له شيخ في الطريق فهو لقيط، وتجد أكثر الناس لما عظمت عليهم أنفسهم ولم يرضوا بتسليمها للمرشد يعتمدون على النادر الذي هو كالمعدوم في الحكم، ويقول أحدهم ربما كان سلوكي على يدي الخضر عليه السلام ويقول الآخر:ربما كان سلوكي على يدي رسول الله ﷺ انه يرقيني، ولم يعلم بأن رسول الله ﷺ أمره باتخاذ الوسيلة، وكل

ذلك أصابهم مما هم عليه من الكبر الذي قطعهم عن الله وعن المنتسبين إليه، الذين فرغوا من تأديب أنفسهم على أيدي مشايخ عالمين بأحكام المريدين، وما شأن هذا المدعي حتى يشتغل رسول الله ﷺ جل قدره بتربيته وهو يعلم أن سنة الله في خلقه جرت بالوسائط وحذفها اختلال، ولولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط، وإذا كان الأمر كذلك على مزاعمهم، والحقيقة بخلاف ذلك، فلم انتصبت الصحابة لبعضها بعضا في تلقين الذكر؟ وذلك معلوم بالضرورة من سنتهم وسنة التابعين من بعدهم خلفا عن سلف، وسلسلة الطريق تشهد بذلك. وما منع المدعين عن أخذ الأدب من أصله إلا دعواهم التي لا توبة بعدها، لما قيل: ان باب التوبة مفتوح إلا على المدعى فإنها سدت في وجهه، لأنه لا يرضى بترك دعواه وتسليم نفسه، ولا تحسب أن الأدب المذكور في قول المصنف هو مجرد تعليم سيرة القوم في الظواهر، بل هو كناية عن أدب السرائر، أي أدب العالم مع ربه حالة ظهور الحق عليه، ولم يدر هذا الأدب إلا من أخذ الله بيده وألهمه أن يأخذه من أصله، لأن أدب المريد مع الله هو محوه من لوحة الوجود مع وقوفه مع الحدود، وهذا الأدب لا يؤخذ من الأوراق، بل هو موقوف على الأذواق، وله معادن معروفة عند أهلها، وله سيمة تدل عليه. قال تعالى: **وأتوا البيوت من أبوابها**، وعليه يجب على كل منتسب إلى الله أن يراجع نفسه هل له نصيب من ذلك العلم أم لا، فإن كان له شيء منه فليحافظ عليه وإن لم يكن له فلا يغر نفسه، لأن اليوم ليس هو غدا، حيث تحق الحقائق ويظهر كل كاذب

وصادق، **يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر** الخ الأية. فأين الدعوى؟ فإنها تكون على صاحبها يومئذ بلوى، ومن المواعظ ما كتبه بعض العارفين إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال:

[أما بعد: فخف مما خوفك الله، واحذر مما حذرك الله، وخذ مما في يديك لما بين يديك، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين. وقال له أيضا إن الهول العظيم والأمور المفظعات أمامك، ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب. واعلم أن من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف آمن، ومن آمن اعتبر، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فاقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فامسك.] فتمسك بهذه الموعظة أخي واحذر مما أنت بصدده فإن الناقد بصير، **وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين.**

ثم قال رضي الله عنه:

«مَنْ ظَهَرَ لَهُ نَقْصٌ فِي شَيْخِهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ»

أي من ظهر له نقص في شيخه محقق أو مشكوك لم ينتفع به لما سيأتي في قول المصنف: الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم وسرك بالتعظيم، ومن لم يشهد لشيخه بالتقديم، ولم يبالغ في

التعظيم حتى يراه أنه دليل الله، ولا مدخل على الله إلا من بابه، وأنه عليم بكل ما يصلح المريد، فلا ينتفع به لقول ابن عربي الحاتمي رضي الله عنه في فتوحاته:

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله * فقم بها أدبا لله بالله
هم الأدلاء والقربى تؤيدهم * على الدلالة تأييدا على الله
الوارثون هم للرسل أجمعهم * فما حديثهم إلا عن الله
كالأنبياء تراهم في محاربهم * لا يسألون من الله سوى الله

ولا ينبغي للمريد أن لا ينظر إلا في محاسن أستاذه، ولا يعترض عليه بشيء لئلا يحرم نفعه. وما أحسن قول الجيلي رضي الله عنه في عينيته:

وإن ساعد المقدور أو ساقك القضا * إلى شيخ حق في الحقيقة بارع
فقم في رضاه واتبع لمراده * ودع كل ما من قبل كنت تصانع
وكن عنده كالميت عند مغسل * يقلبه ما شاء وهو مطاوع
ولا تعترض فيما جهلت من أمره * عليه فإن الإعتراض تنازع
وسلم له فيما تراه وإن يكن * على غير مشروع فثم مخادع
ففي قصة الخضر الكريم كفاية * بقتل غلام والكليم يدافع
فلما أضاء الصبح عن ليل سره * وسل حساما للمحاجج قاطع
أقام له العذر الكليم وإنه * كذلك علم القوم فيه بدائع

وإن لم يقدر المريد أن يسلم لشيخه في جميع سيرته، فالأولى به أن يعتزله، لما قيل: ان الإمام الجنيد رضي الله عنه قال لبعض تلامذته حين سأله عن مسألة وأجابه عنها، فعارضه **وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون** حتى قيل: من قال لشيخه لماذا لم يفلح أبدا، وهذا

إن كان على وجه التعنت والإعتراض وأما إن كان مستفهما ليزداد بذلك اطمئنانا فله أن يسأله وقد سأل موسى ربه: **رَبِّ ارني انظر إليك.**

وحاصل الأمر أن الشيخ من سرت فيك إشارته، واثرت فيك عبارته، الشيخ من أخذ بظاهرك وباطنك حتى لم يبق لك معه إلا مجرد الإسم، إذا نهض بك نهضت له، وإذا زج بك زجيت معه، يقول لك تقدم فلا تتأخر، يرميك في لهيب الجمر فلا تتخير بدون ما يؤثر فيك شيء مما أمرك به لقول بعض المحبين:

ولو كان[من]يرضى بِخَدّيَ موطئا * لوضعته أرضا ولم استنكف

ترى كل أعماله وأقواله أطيب من الشهد، فهذا هو الذي تنتفع به، وإلا فلا. وإذا حصل للمريد نقص في شيخه، فعليه بمداواة ذلك المرض بالرجوع والانكسار، وإن يعلم الشيخ بذلك، ويتذلل ويقول كمن قال:

جئت مستخفيا وقد عرفوني * ها أنا تائب فهل يقبلوني
أنا بالبابَ واقف مدة دهري * كلما رمت وصلهم ابعدوني
أبعدوني وقربوا الغير دوني * ولهذا اموت من غير حين
لم آكن للوصال أهلا ولكن * انتم في الوصال اطمعتموني
كنت إن جئت قيل أهلا وسهلا * وأنا اليوم يغلق الباب دوني
فاجبروا كسر مذنب قد أتاكم * يرتجى عفوكم بكم فارحموني
في بحار الهوى غرقت بوجدى * طال شوقي لهم وقد تركوني
أيها النفس ساعدي ونوحي * ويح قلبي احبتي هجروني

فمن جاء بشروط ما وجب عليه، فلا جرم يكون مقبولا، ويأخذ الشيخ بيده ويجبر كسره، إن كان الشيخ طبيبا ماهرا، ووجد المريد الراحة مما أصابه، وإلا ينتقل بسلامة لانعدام الفائدة وانقطاع المدد،فهو لا يزداد بصحبة ذلك الشيخ إلا بعدا. نسأل الله السلامة، والمريد أعلم بنفسه من غيره، وهذا إن كان الشيخ ممن ظهرت على يديه بدائع أنواع الفتوحات ونتائج المعارف في المريدين، وأما إذا كان لا يدري من الطريقة إلا اسمها ومن الحقيقة إلا ذكرها، فهذا مفارقته لا تحتاج للتأني، بل تجب على الفور إن كان المريد ممن يطلب الزيادة محتاجا للوصول.

وما أحسن قول الشريشي رضي الله عنه في رائيته:

وللشيخ آيات إذا لم تكن له * فما هو إلا في ليالي الهوى يسري
إذا لم يكن علم لديه بظاهره * ولا باطن فاضرب به لجج البحر
وإن كان إلا أنه غير جامع * لوصفهما جمعا على أكمل الأمر
فأقرب أحوال العليل إلى الرَّدَى * إذا لم يكن منها الطبيب على خبر
ومن لم يكن الا الوجود أقامه * واظهره منشور ألوية النصر
فأقبل أرباب الادارة نحوه * بصدق يخلى الهش في جلد الصخر
وآياته أن لا يميل إلى هوى * فدنياه في طي وأخراه في نشر
وإن كان ذا جمع لأكل طعامه * مريدا فلا يصحبه يوما من الدهر

فخدمة المشايخ ليست هي مجرد التعبد فقط،بل العبودية لله جميعا إنما خدمتهم هي معللة بشيء زائد،وهو توضيح السبيل والطريق الموصلة لله عز وجل،حتى يقول الشيخ للمريد: ها أنت وربك، فلهذا وجبت صحبتهم وتعينت خدمتهم والتذلل على

اعتابهم، ولو لم يكن كذلك فما فائدة الخدمة، فإن كانت لمجرد التبرك، فقد دونت دواوين وصُنِّفَتْ تصانيف في افعال البر، ونوافل الخيرات، فللمريد أن يأخذها من أي كتاب شاء، ولكن هذا لمن يريد الزيادة، وأما عوام المسلمين فخدمتهم لمشايخ التبرك لا تُخِلّ برتبتهم إن كانت فيها زيادة، وتبينت نتيجتها من تعليم ما يجب عليهم من أحكام الدين وحسن السيرة مع جميع المسلمين، لا كما هو مشاهد في زماننا، حيث أن المريد قبل انتسابه إلى الطريق يكون محبا لكل المنتسبين، حتى إذا انتسب إلى طائفة نقصت في عينه بقية الطوائف فكان عدم الإنتساب لهذا أحسن من الإنتساب لخروجه عن حد قوله: **إنما المؤمنون إخوة.**

ثم قال رضي الله عنه:

«الشَيْخُ مَنْ شَهِدَتْ لَهُ ذَاتُكَ بِالتَّقْدِيمِ وَسِرُّكَ بِالتَّعْظِيمِ»

أي الشيخ الذي تنتفع به أيها المريد، هو من شهدت له ذاتك بالتقديم في كل شيء، وسرك بالتعظيم حتى يكون عندك أعظم من كل عظيم، وإذا لم تتمحض لك هذه النظرة فيه، ففي الغالب يتعذر عليك ما يصل إليك من استمداده. قال الشريشي رضي الله عنه:

ولا تقدمن قبل اعتقادك أنه * مربي، ولا أولى منه في العصر
فإن رقيب الالتفات لغيره * يقول لمحبوب السراية لا تسر
ولا تعترض يوما عليه فإنه * كفيل بتشتيت المريد على هجر

ومن يعترض والعلم عنه بمعزل * يرى النقص في عين الكمال ولم يدر
ومن لم يوافق شيخه في اعتقاده * يظل من الإنكار في لهيب الجمر
فذو العقل لا يرضى سواه وإن نأى * عن الحق نأي الليل عن واضح الفجر
ولا تعرفن في حضرة الشيخ غيره * ولا تملأن عينا من النظر الشزر

ومن ظهر له أدنى نقص في شيخه لم ينتفع به، لأن الشيخ سفير من الله للمريد، وهو باب الله لا مدخل للمريد على الله إلا من بابه، فحافظ أيها المريد الصادق على أدبه وتعظيمه، لأن في تعظيمك له تعظيما للحق عز وجل لقوله ﷺ: **بجلوا المشايخ لأن في تبجيلهم تعظيم جلال الله.** قال ابن عطاء الله في لطائف المنن: إنما يكون الإقتداء بولي دلّك الله عليه وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته في وجود خصوصيته، فألقيت إليه الإنقياد فسلك بك سبيل الرشاد ليعرفك برعونات نفسك في كمائنها ودقائقها، ويدلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار عما سوى الله، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله، ويوقفك على إساءة نفسك ويعرفك بإحسان الله إليك، والإقبال عليه، والقيام بالشكر إليه، والدوام على ممر الساعات بين يديه. قال فإن قلت: فأين هو من هذا وصفه؟ لقد دللتني على أغرب من عنقاء مغرب؟ فاعلم أنه لا يعوزك وجدان الدالين وإنما يعوزك وجدان الصدق في طلبهم، جد صدقا تجد مرشدا، وتجد ذلك في آيتين من كتاب الله. قال الله سبحانه: **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب . (أمن يجب المضطر إذا دعاه)** وقال تعالى: **فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم.** فلو أضطررت إلى

من يوصلك إلى الله اضطرار الام لولدها إذا فقدته لوجدت الحق منك قريبا، ولك مجيبا، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك ولتوجه الحق لك بتيسير ذلك عليك.

ثم اعلم أن أدب المريد مع الشيخ، والشيخ مع المريد كثير، وقد صنفت فيه تصانيف، ومن ذلك ما قاله أبو القاسم القشيري رضي الله عنه: فشرط المريد أن لا يتنفس نفسا إلا بأذن شيخه، ومن خالف شيخه في نفس، سرا أو جهرا، فسوف يرى عنه غير ما يحبه سريعا.

وقال ابو العباس: إياك أن تحقر فعلا خطر عليك، أن لا تلقيه للشيخ طاعة كان أو معصية، على أي نوع برز لك، ولو اختلف عليك الف مرة في الساعة واختلفت إليه ألف ساعة في الخاطر ليعلمك الدواء الذي تزعجه به، أو يحمل عنك بهمته. قال ولقد رأيت تلميذا من أصحاب شيخنا الإمام تاج العارفين أبي محمد عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي رحمه الله تعالى، وكنت جالسا عنده، فدخل عليه فقير وفي يديه باقلة فقال له يا سيدي إني وجدت هذه الباقِلّا فما أصنع بها؟ فقال له: اتركها حتى تفطر عليها. فقلت: يا سيدي حتى الباقلة يعلم بها؟ قال: يا ولدي لو خالفني في لحظة من خطراته لم يفلح أبدا. وللمريد أدب وأخلاق، أعز من أن توجد في عامة الخلق يكرمه الله بها زائدة على القيام بأدب الشيخ بل هو يعطي لكل مستحقه وقد أشار المصنف في آخر الفصل لبعض أوصافه.

ثم قال رضي الله عنه:

«الشَّيْخُ مَنْ هَذَّبَكَ بِأَخْلَاقِهِ وَأَدَّبَكَ بِإِطْرَاقِهِ وَأَنَارَ بَاطِنَكَ بِإِشْرَاقِهِ»

أخذ يبين رضي الله عنه في أوصاف الشيخ المعتمد عليه في طريق القوم، فأخبر أن من سِمَتِهِ وحسن سيرته، أنه يأخذ المريد من حال إلى حال شريف، بدون أن يتكلف له بمقال، إنما الحال يسرق الحال، فيتهذب المريد باخلاقه. كان ﷺ سكوته بين أصحابه وجلوسه ونومه ويقظته وسائر أحواله تعليما. وكذلك من كان على آثاره فلا بد من أحواله تسري في تلامذته. فلهذا قال الشيخ الذي تظهر عليك فائدته، أيها المريد، هو من هذبك بأخلاقه لا بمقاله، وأدبك باطراقه، وأنار باطنك باشراقه، أي أخذك بحاله، وأسرى فيك بأسراره وعرفك بنفسه، وانتفعت بمعرفته حتى كنت نسخة منه، ما فيه يظهر عليك. دخل بعض الصوفية على الجنيد رحمة الله عليه، فوجد أصحابه في غاية الأدب، فقال له: أدبت تلامذتك يا جنيد، قال: والله ما أدبتهم، ولكن ما في بواطنهم ظهر على ظواهرهم. وكان يقول بعضهم إذا كانت السلحفة تربي أولادها بالنظرة، فكيف بالشيخ الكامل لا يربي أبناءه بالنظرة. بل ذلك من لوازمه. وفي هذا قال أبو العباس المرسي رضي الله عنه: ما بيني وبين مريدي إلا نظرة واحدة، فإذا نظرته قد أغنيته. وكان أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول: مالي وصحبة الاميين، والله لقد صحبنا رجالا، لو نظر أحدهم إلى

شجرة يابسة لأثمرت من حينها. نعم فقد تلاقينا بمثل ما ذكر الشيخ. فكان أستاذنا الشيخ سيدي محمد البوزيدي رضي الله عنه ليس بينه وبين المريد إلا أن يرضى عليه. فقد لاقيناه وليس فينا من قابلية الطريق إلا مجرد المحبة. فما مرت علينا أيام إلا وصرنا في مقام يعجز عن وصفه بدون استعداد لذلك. وقلت له مرة جزاك الله خيرا يا سيدي فإنك أكرمتنا بما لسنا له أهلا. فقال لي: أنتم جزاكم الله خيرا حيث أتيتمونا. فوالله لو تلاقينا بمن لا يحسن الشهادة لعلمناه بما علمناكم بدون شعور.

قيل دخل لص على رابعة العدوية ليلا، فنظر في البيت يمينا وشمالا فلم يجد غير إبريق، فلما هم بالخروج قالت له: يا هذا إن كنت من الشطار، فلا تخرج بلا شيء، فقال لها: وكيف إذا لم أجد شيئا؟ فقالت له خذ هذا الإبريق، ثم توضأ، فصل ركعتين، ففعل ما أمرته؛ فلما قام يصلي رفعت رابعة العدوية طرفها إلى السماء وقالت: سيدي ومولاي هذا عبدك قد أتى إلي ولم يجد عندي شيئا، وقد أوقفته ببابك، فلا تحرمه من فضلك وثوابك؛ فلما فرغ من صلاة الركعتين لذت له العبادة، فما برح يصلي إلى آخر الليل، فلما كان وقت السحر دخلت عليه رابعة العدوية فوجدته ساجدا وهو يقول في عتابه لنفسه:

إذا ما قال لي ربي * أما استحييت تعصيني
وتخفي الذنب من خلقي * وبالعصيان تأتيني
فما قولي له لما * يعاتبني ويقصيني

فقالت له: حبيبي كيف كانت ليلتك؟ فقال: بخير بين يدي مولاي بذلي وفقري، فجبر كسري، وقبل عذري، وغفر لي الذنوب وبلغني بالمطلوب. ثم خرج هائما على وجهه؛ فرفعت رابعة العدوية طرفها إلى السماء وقالت: سيدي ومولاي هذا واقف ببابك ساعة فقبلته، وأنا منذ عرفتك بين يديك أترى قبلتني! فنوديت في سرها، يا رابعة من أجلك قبلناه وبسببك قربناه. ومثل هذا من حكايتهم رضي الله عنهم كثير. والمعنى أن الشيخ عندهم لا يكون شيخا إلا إذا قويت عزيمته،وعظمت همته على المريد بحيث يقدر أن ينقله مما هو عليه بمجرد اضطرار المريد وامتثاله لما يأمره به. وإلا، فليس له من المشيخة إلا مجرد الإسم.

ثم قال رضي الله عنه:

«الشَّيْخُ مَنْ جَمَعَكَ بِحُضُورِهِ وَحَفِظَكَ فِي مَغِيبِهِ»

أي يجمعك على الله بمجرد حضورك معه والإنقياد بين يديه، ولا يجمعك على غير الله، لأن ذلك ليس من مقاصده. ومن لم يجمعك على الله جمع شهود فليس بشيخ. لكن إذا ألقيت إليه الانقياد، وتحقق منك الإضطرار، فله أن يجمعك على الله في أقرب الأوقات، ولا يشق ذلك عليه لأن مفتاح الحضرة بيده، أو تقول هو باب من أبواب حضرة الله. ومن لم تكن هذه خصلته، فلا يعد من الدالين على الله. ولهذا قال المصنف: الشيخ من جمعك في حضوره، وحفظك في مغيبه، أي ويحفظك بهمته عند مغيبه

من أكثر الطوارئ. فهو يحاذيك ما دمت في السير حتى يقول لك ها أنت وربك. ولكن لا بد من الإجتماع به، فلا تكتفي أيها المريد بمجرد الإنتساب إليه، فإن الشيخ لا يأخذ المريد من نفسه ويدخل به على الله إلا إذا تلاقيا. وهذا هو الغالب. وأما النوادر، فلا حكم لها. جرت عادة الله بالملاقة. ومن قولهم الملاقاة مساقاة . وفي زيارة المشايخ خير كثير وفضل كبير، وبها يكون الوصول إلى الله، ولكن زيارة من تقدم وصفهم في تعريف المؤلف. وأما بقية المشايخ، فزيارتهم كزيارة المؤمنين، وأغلبهم في احتياج لمن يأخذ بيدهم. **فلو صدقوا الله لكان خيرا هم.** وللشيخ آيات لا تخفى على البصير. قال في لطائف المنن لابن عطاء الله رضي الله عنه: ليس شيخك من سمعت منه، إنما شيخك من أخذت عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته، إنما شيخك الذي اثرت فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب. وليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك الذي نهض بك حاله. شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى. شيخك هو الذي مازال يجلو مرآة قلبك حتى تتجلى فيه أنوار ربك. نهض بك إلى الله، فنهضت إليه. وسار بك حتى وصلت إليه. ولا زال محاذيا لك حتى يلقيك بين يديه. فزج بك في أنوار الحضرة وقال: ها أنت وربك. شيخك هو الذي أخذك من نفسك ودخل بك على الحق حتى إذا رفعت بصرك لم تجد إلا وجود الحق. ثم لا يزال محاذيك حتى تنبت في الشرع نباتا حسنا. **والبلد الطيب**

يخرج نباته بإذن ربه. الشيخ هو من ألقاك في سجل الفنا حتى صرت كأنك لم تكن، ثم صعد بك إلى **أ**علـى البقا**ء،** حتى كنت كأنك لم تزل. الشيخ هو الذي أخذك بالخلق وأبدلك بالحق. ليس الشيخ من دعاك، إنما الشيخ من وصّلك. الشيخ كالأب والأب لا يكون أبا، إلا إذا كان سببا في إخراج ابنه من العدم إلى الوجود. فكذلك الشيخ لا يكون شيخا، إلا إذا تسبب في إخراج المريد من الخلق،ودخل به على الحق. فذلك هو الشيخ. وإن لم يكن كذلك، فليس له على المريد أدنى حق. ليس لك أب إلا مَنْ وَلَدَكَ، ولا شيخ إلا من عرّفك، ولما يخرجك من قيد الوجود إلى فضاء الشهود، يُجِدُّ في تربيتك إلى أن تصير رجلا مثله، فيرتاح منك وتنفطم عنه وعن غيره، ولم يبق لك إلا الأدب معه إلى أن تصير تستمد من نفسك وتقول حينئذ كمن قال:

صار مشروبي من انائي ☆ مذ استعذبت الورود

وتستغني عن الكل بسبب ملاقاته، ولم يبق عليك إلا حسن المعاشرة فيما يناسب حاله. فهذا هو شيخك. ومن لم يكن كذلك، فليس له عليك من المشيخة حق، ولا انت مطلوب بشيء من الادب معه إلا من حيث المروءة. ثم اخذ يذكر وصف المريد

قال رضي الله عنه:

«الْمُرِيدُ آثَارُ نُورِهِ مَعَ الْفُقَرَاءِ بِالْأُنْسِ وَالانْبِسَاطِ»

ولامفهوم للمريد، بل ذلك من شيم المؤمنين، يعاشرون كل شيء بما يؤنسه ولا يوحشه، إلا أن المريد لما كان بصدد مطلب نفيس يحتاج له أن يستعمل في طلبه كل أنواع البر مع خلق الله عز وجل لما قيل: أحسنكم لله أحسنكم لخلقه، خصوصا الفقراء، فإنهم عيال الله لا محالة. فينبغي للمريد أن يكون معهم بالأنس والانبساط، وفي انبساطهم انبساط الحق عز وجل، لما يروى عن موسى عليه الصلاة والسلام في بعض مناجاته قال: «يا رب الك اكل»؟ قال: يا موسى اكل الفقير اكلي الخ الحديث. وقوله عز من قائل في بعض الاحاديث القدسية: **أنا عند المنكسرة قلوبهم**، وناهيك قوله لاشرف المرسلين: **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**، لانه سبحانه وتعالى معهم.

كان عليه الصلاة والسلام يحسن الى الفقراء ويباسطهم، ويعاملهم وياكل معهم، ويجالسهم ويؤانسهم، حسب **ما** يحتاجون اليه، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: **اللهم احيني مسكينا وامتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين**. لكونهم احباب الله وانصاره. قال عيسى عليه السلام: **من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله**. وكانوا من الفقراء المتجردين.وهكذا نجدهم انصار كل نبي ومرسل ولازالوا أنصارا لأولياء الله. وما من نبي بعث الا ويتلقاه الفقراء بالتعظيم والتبجيل لكونهم

احباب الله. وكيف لا يتلقون رسول محبوبهم، والفقراء لهم مكانة عند الله وإن كانت منحطة عند الخلق. **ومن نعمره ننكسه في الخلق.** وتجد الاغنياء في كل عصر إلا وهم اضداد لمن ارسل. **ذلك تقدير العزيز العليم.** ينظرون الفقراء بعين الازدراء، يرونهم ارذل الخلق مع أنهم أشرف العبيد قالوا لنوح ولازالوا يقولون فيما أخبر عنهم أصدق القائلين: **أنومن لك واتبعك الأرذلون.** وقالوا أيضا: **إن هم إلا أراذلنا بادى الرأي.** اراذل في نظرهم، وهم عند الله أعظم منهم، وستراهم إذا انجلى، **يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم.** قال عليه الصلاة والسلام: **اتخذوا يدا عند الفقراء فان لهم دولة يوم القيامة.**

اللهم حببهم لنا وحببنا لهم ولا تفصل بيننا وبينهم. وإياك يا أخي أن تهين أحدا من الفقراء، الضعفاء الحال، فإن لهم عند الله شأنا، فعاملهم بارك الله فيك بما في وسعك، واحسن اليهم بما في جهدك، وحافظ على مؤانساتهم ومباسطتهم، وأدخل عليهم السرور من اي وجه تمكن لك.

كان يزورنا بعض من إخواننا رحمة الله عليه وقد كانت تجتمع عليه الفقراء والضعفاء عند قدومه، فيأخذ في مؤانستهم بكل ما في وسعه، وينفرد بهم، ويباسطهم ويعاملهم، ومن ذلك يجعل لهم من الطبخ المختلف ما لا يجعله لغيرهم. فقلت له مرة: ألا تجعل لهم نوعا من الطعام و اللحم يكفيهم عن بقية الطبخ، ويكون عليك أسهل؟ فقال لي يا أخي: إن هؤلاء الضعفاء إذا لم يأكلوا عندنا هذا الطبخ، فأين يأكلونه؟ وإني أرى أن أطعمهم ما

لا يطعمهم غيري. فتعجبت والله من حسن معاملته مع الضعفاء. وكان يؤانسهم بكل ما يستأنسون به، فمن جملة ذلك، كنا مجتمعين ذات يوم مع جماعة الفقراء، وكان بيننا رجل غريب لم يوافق حاله أحوال الفقراء، فكان منفردا، وبعد تمام الذكر، نادى عليه، فدنا منه ثم قال له آت بما عندك، وكان لذلك الرجل البعض من الاشعار التي لا معنى لها ولا فائدة في استماعها، فأخذ في الكلام الى ان فرغ. فعامله بشيء، فقلت له في ذلك، فقال لي لولا أن آنسناه بما يريد لبات في هذه الليلة في غم، وإني أردت أن يبيت مبسوطا كبقية الفقراء. فإننا حاسناه بذلك والله يحب المحسنين.

فهكذا والله ينبغي ان يكون المؤمن.

ثم قال رضي الله عنه:

«وَيَكُونُ مَعَ الصُّوفِيَّةِ بِالْأَدَبِ وَالْإِرْتِبَاطْ»

الصوفية رضي الله عنهم: لهم أحوال وعزائم، فهم أولوا العزم من الأمة المحمدية فلا يحسن لهم وبهم إلا من يرتبط معهم في أحوالهم، ويتبعهم في سيرهم، ويلزم الأدب في معاشرتهم من كل الوجوه، لأنهم يقولون رضي الله عنهم: التصوف كله أدب. ففي كل وقت أدب، وفي كل مقام أدب، وفي كل حال أدب، ومن فاته الآدب فاته الصواب. قال الثوري رضي الله عنه: من لم يتأدب للوقت فوقته مقت. وقال ابن المبارك رضي الله عنه: نحن إلى

قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم. وقيل لبعضهم: أسأت الأدب فقال: لست بمسيء الأدب، فقيل له ومن أدبك؟ فقال: الصوفية. فتحصل من هذا أن الصوفية كل أحوالهم أدب. فلهذا كانت مؤانستهم لا تكون إلا به، فيحسن للمريد إذا عاشرهم، أن لا يقنع من الأدب لأنهم قالوا رضي الله عنهم: إجعل عملك ملحا، وأدبك دقيقا. وقولهم: من فاتك تأدبا، فاتك تصوفا. قال بعض المتأخرين: ما نجونا من الصوفية في زماننا إلا بالأدب. فمن أحسن أدبه حسنت سيرته. وقال عليه الصلاة والسلام: **أدبني ربي فأحسن تأديبي، ثم أمرني بمكارم الاخلاق.** قال تعالى: **خذ العفو وأمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين.**

وجاء في الأثر: كل مكارم الأخلاق أصلها الأدب. وقد سئل الدقاق رضي الله عنه: بماذا يقوّم الرجل اعوجاجه؟ فقال: بالتأديب بإمام. فإن من لم يتأدب بإمام بقي بطالا. قال السري رضي الله عنه: صليت العشاء واشتغلت بوردي ليلة من الليالي، ومددت رجلي في المحراب، فنوديت: يا سري هذا جلوس الملوك، فضممت رجلي ثم قلت وعزتك وجلالك **ما أمددت رجلي أبدا!** قال الجنيد رضي الله عنه: فبقي ستين سنة ما مد رجله ليلا ولا نهارا. ولهم من الأدب رضي الله عنهم ما لا يمكن ببال. فمن أراد الإقتداء بهم، فعليه بالأدب في كل شيء شيء. وقد شاهدنا أنه من لزم الأدب معهم أخذ قلوبهم بأجمعها، وذلك عندهم مقياس على المريد إذا قام بالأدب يأخدون من ذلك صلاحيته للدخول على الله، وكل من سقط من رتبته إلا بسبب إساءة

أدبه مع الله عز وجل. قال رجل لأبي محمد الجريرى رضي الله عنه: كنت على بساط الأنس ففتح علي طريق البسط، فزللت زلة حجبتنى عن المقام فكيف السبيل إليه، دلني على الوصول إلى ما كنت عليه. فبكى أبو محمد وقال يا أخي: الكل في قهر هذه الحياطة، ثم انشد قائلا:

قف بالديـار فهـذه آثـارهم ☆ تبكي الأحبـة حسرة وتشوقـا
كم قد وقفت بربعهـا مستخبرا ☆ عن أهلهـا أو سـائلا أو مشفقـا
فأجابني داعي الهوى في رسمهـا ☆ فـارقت من تهوى فعـز الملتقى

وقيل في هذه النازلة: أنه انبسط مع الحق بغير أدب. ولهذا كانوا رضي الله عنهم لا يقبلون من المريدين إلا احسنهم أدبا.

ثم قال رضي الله عنه:

«وَيَكُونُ مَعَ الْمَشَايِخِ بِالْخِدْمَةِ وَالْإِتِّعَاظِ»

ومن أدب المريد مع المشايخ، أن يبادر لخدمتهم، وأن يتعظ بوعظهم. ومن لم ينهض لخدمتهم، ويتعظ بوعظهم، في الغالب يسقط من نظرهم، وإن سقط من نظرهم لا محالة يسقط من عين الله. وللمصنف رحمه الله في بعض نصائحه:

وراقب الشيـخ في أحوالـه فعسى ☆ يرى عليك من استحسانـه أثرا
وقدم الجد وانهض عنـد خدمتـه ☆ عساه يرضى وحاذر أن تكون ضجرا

وسنذكرها إن شاء الله بتمامها في هذا الفصل لما فيها من المناسبة. فقد بين ما يحتاج إليه المريد في سيره.

وعليه، فلا يحسن بالمشايخ إلا من خدمهم. وقد شاهدنا أن كل من خدمهم إلا وأخذ بقلوبهم، ولو أن أحدا أنفق عليهم من الأموال الباهضة، ثم لم يتذلل على أعتابهم ويخدم جنابهم، في الغالب لا يحصل على ما يحصل عليه غيره.

قيل أن مولاي الطيب بن مولاي العربي الدرقاوي رضي الله عنهما، أتى لتلميذ من تلامذة أبيه وقال له أعطني مما أعطاك أبي، فقال: له حتى تكون لي عبدا، كما كنت أنا لأبيك. فقال له: أنا أكون عبدا لعبدك، فلم تمر عليه أيام إلا وحصل على ما كان عند أبيه. ومن ذلك قول المصنف: من خدم الصالحين انتفع بخدمته.

قيل أن بعض الأمراء كلف بعض الصالحين أن يمنحه مما منحه الله، وأخذ يرضي فيه من كل الوجوه، إلى أن قال له: نشاركك في مملكتي. فأبى العارف أن يَسْخُوَ بسره فهدده بالسجن ثم بالقتل، فلم يلتفت اليه، فأمر به الى السجن، فقال العارف: حبا وكرامة. ثم أشار بعض الحكماء على الأمير أن يتنكر على هيئة حباس، ثم يذهب إلى السجن ويخدم الشيخ ويلاطفه ويعامله، ثم يسأل منه ما يريد. فذهب الأمير إلى السجن وتَزَيّا بملابس الحباس، ثم أخذ في خدمة الشيخ، وحسن المعاملة له، إلى أن أخذ بقلبه، فلم تمر عليه أيام حتى قال له الشيخ: أحسنت الي أحسن الله إليك، وإني إن شاء الله أمنحك سرا عجزت الملوك عن أخذه. ثم أمره بفعل ما أشار له به، فامتثل لأمره. وبعد أيام حصل على غرضه. فذهب الأمير لمملكته، ثم أمر على الشيخ

فأحضر بين يديه، ثم أخذ الامير يتكلم في العلم الذي منعه الشيخ أولا من أخذه، وقال له إني أخذته بدونك. فتفطن الشيخ لذلك وقال له: بل أخذته وأنا أمير عليك. وأنشدوا في هذا المعنى

ولو أن أهل العلم صانوه لصانهم ☆ ولو عظموه في النفوس لعظموا

لكل شيء ثمن، وثمن طريق القوم إسقاط المنزلة. فلهذا من أتى للمشايخ ولم يسخ بخدمتهم، فلا يحصل على سرهم. بل ينبغي له أن يكون معهم، كما قال المؤلف بالخدمة والإتعاظ.

ثم قال رضي الله عنه:

«وَيَكُونُ مَعَ الْعَارِفِينَ بِالتَّوَاضُعِ وَالْإِنْخِفَاضِ»

فمن تواضع لله رفعه الله، خصوصا مع أولياء الله العارفين. وناهيك ما قاله عز من قائل لخاتم المرسلين: **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين.** فلا يحسن بالمريد إلا خفض الجناح بين إخوانه الذاكرين.

ومن حدثته نفسه بتكبر ☆ تجده صغيرا في عيون الأقلة

بل ينبغى له أن يتواضع كل التواضع، ولا ينسب لنفسه تواضعا، لما فى الحكم العطائية: «من أثبت لنفسه تواضعا، فهو المتكبر حقا» إذ ليس التواضع إلا عن رفعة، فمن أثبت لنفسه تواضعا، فقد أثبت لها منزلة.

وقوله أيضا: «ليس المتواضع الذي إذا تواضع، رأى أنه فوق ما صنع، ولكن المتواضع الذي إذا تواضع، رأى دون ما صنع»

لأن العارفين بعظمة الله عز وجل، لا يأخذ بقلوبهم إلا من تواضع بتواضعهم، لأنهم يرون الكل متلاشيا وممحوقا عند ظهور عظمة الله عز وجل. ومن لم يشم رائحة مما هم عليه، لا يعنون به. ومن تواضعهم رضي الله عنهم وتنزلهم ما قاله أبوسليمان الدارني رضي الله عنه: لو إجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه. ويحكى عن بعض الصوفية أنه وقف على رجل وهو يأكل، فمد يده وقال: إن كان ثم شيء لله تعالى؟ فقال: أجلس فكل. فقال: أعطنى في كفي، فأعطاه، فقعد في مكانه يأكل، ثم سأله عن إمتناعه من الجلوس معه، فقال: إن حالي مع الله تعالى الذل، فكرهت أن أفارقه.

وأغرب من هذا ما ذكره أبو الحسن يوسف القرطبي عن أبيه، رحمة الله عليهما، أنه رأى أبا محمد عبد الرحمن، وكان فقيها، وهو يمشي في يوم شتاء كثير الطين فاستقبله كلب يمشي على الطريق التى كان عليها، قال: فرأيت الشيخ قد الصق بالحائط، وعمل للكلب طريقا، ووقف ينتظره للجواز، وحينئذ يمشى هو. فلما قرب من الكلب، قال: فرأيته قد ترك مكانه الذى كان فيه، ونزل أسفل، وترك الكلب يمشي فوقه. قال: فلما جاوزه الكلب، وصلت إليه فوجدته وعليه كآبة، فقلت له: يا سيدي إني رأيتك صنعت الآن شيئا إستغربته، كيف رميت بنفسك في الطين وتركت الكلب يمشى في موضع نقي؟ فقال لي: بعد أن عملت له طريقا تحتي تفكرت، فقلت: ترفعت على الكلب وجعلت نفسي أرفع منه، بل هو والله أرفع مني، وأولى بالكرامة، لأني عصيت الله

وأنا كثير الذنوب، والكلب لا ذنب له. فنزلت عن موضعي وتركته يمشي، وأنا الآن أخاف المقت من الله إلا أن يعفو عني، لأني رفعت نفسي على من هو خير مني.

فانظر يا أخي هذا التواضع مع من لم يؤمر بالتواضع له. فكيف بتواضعهم بين أهل الله، فهم رضي الله عنهم، لا يحسن بهم إلا من شاركهم في تواضعهم، وتطبع بطبعهم. قال مولانا العربي الدرقاوي رضي الله عنه: الناس يتنافسون في العلو من هو أعلى، ونحن نتنافس في الدنو من هو أدنى. فلله دره. وهذا بيان من أراد أن يحسن أدبه مع العارفين ويؤانسهم، فينبغى له أن يتنزل بتنزلهم.

ووجه الفرق بين أدب المريد مع المشايخ، وبين أدبه مع العارفين: أن عامة العارفين يكتفون منه بمجرد التواضع والانحطاط، لأن المريد ليس هو مطلوب بالخدمة لكل العارفين، بخلاف المشايخ، لأن فائدته موقوفة على خدمتهم خصوصا الشيخ الذي هو في حياطته، مرتجيا لنواله ورضاه.

ثم قال رضي الله عنه:

«وَمَعَ الْعُلَمَاءِ بِحُسْنِ الإِسْتِمَاعِ وَالإِفْتِقَارِ»

اي ليس للمريد أدب أسلم وأنجح أن يكون عليه بين علماء الظاهر، من الإستماع والإفتقار، لما عندهم من أحكام الشرع، وليس هناك شيء يؤانسهم به مثل ذلك. والمريد إذا أراد أن

يعامل كل شيء بما يؤانسه، فلا يعارضهم ولو تبين له الحق في غير كلامهم، فليسلم لهم في قولهم. وإذا أراد الله أن يحق الحق فسيظهر ذلك على ألسنتهم، ويبطل الباطل بعد حين. وأيضا لعلماء الظاهر من المزية ما ليست لغيرهم، وكيف لا، وهم ورثة الأنبياء في شيء من خصائصهم، فإن لم يرثوا الأحوال فقد ورثوا الأقوال. فعلى كل حال لهم حظ وافر.

كان يقول مولانا العربي الدرقاوي رحمه الله: جزى الله عنا خيرا علماء الظاهر، كلما أخذتنا الحقيقة إلا وأيقظونا، فهم رافعون أعلام الشريعة على رؤوسهم، ولولا وجودهم ما استقام وجودنا.

وزيادة على ذلك أن العالم له الحق المبين والحجة الواضحة، ولو كان للمريد شيء من وراء ذلك، فلا يحسن به إلا الإستماع لهم، وإن ساعد المقدور ليبث لهم مما عنده على شرط معلوم فليفعل، وإلا فالأشياء مرهونة في أوقاتها. ولهذا تجد أولياء الله العارفين يؤانسون مبغضهم، فضلا على غيره. وكيف لا، وقد أمروا بذلك وجبلوا عليه وسيرة القوم في مثل هذا مشهورة من أن تذكر.

كان مولانا الطيب بن مولانا العربي الدرقاوي، رضي الله عنهما، كثيرا ما يتكلم في الزهد وفي حقارة الدنيا بين أصحابه في أغلب أوقاته، وكان معاصرا له بعض علماء الظاهر منكرا عليه. فقصده ذات يوم يريد الإعتراض. فقال الشيخ لبعض تلامذته: دعوه يتكلم بما عنده، ويحسن بكم السكوت والإستماع. فإنه لا يعارضنا إلا بما قال الله ورسوله. ولا تغيظوه بشيء فإنه زائركم، والزائر له حق على المزار. وعند ما جلس الشيخ للكلام تعرض له العالم

بقوله: أنتم تقولون الدنيا مذمومة، والحق يقول: **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.** وقوله عليه الصلاة والسلام: **نعم المال الصالح عند الرجل الصالح.** وأخذ يغلظ في الكلام والشيخ في ذلك مطرق الرأس، والفقراء على أحسن سكوت وأدب، وإذا بفقير من الفقراء كان سائحا ولم يعلم بأن الشيخ نهى الفقراء عن الكلام، وعند ما قال العالم الدنيا مطية المؤمن أجابه الفقير قائلا: إن كان المؤمن راكبا عليها! وإن كانت راكبة عليه...؟ فالتفت إليه الشيخ وقال له من أمرك بالكلام؟ فعند ذلك إعتذر العالم إلى الشيخ لما علم أن سكوتهم كان شفقة به. فهكذا حالهم، وينبغي أن يكون حال من اقتدى بهم كذلك.

ثم قال رضي الله عنه:

«وَمَع أَهْلِ المَعْرِفَةِ بِالسُّكُونِ وَالإِنْتِظَارِ»

والمراد بأهل المعرفة، العاملين عليها حالة تفننهم، وفيضان الحقائق عليهم، بخلاف العارفين المتقدمين في الذكر، فأولئك راسخي القدم، أو تقول: المتمكنين، أهل السكون، وهؤلاء أهل الفنون، لأنهم قالوا: الطريقة أولها جنون، ووسطها فنون، وآخرها سكون. فأهل الوسط يحسن للمريد أن يؤانسهم بالسكون والإنتظار لما يبرز على أفواههم حالة فيضان المعارف عليهم، لأن صاحب المعرفة لا يؤانسه حالة دخوله على الله إلا من يستمع إليه،

لما يرى أن علمه مأخوذ من أصله، وقريب عهد من ربه، والكل محتاج إليه. فمن خرج على قاعدته، ولم يستمع إليه، فقد أساء إليه.

وقد كان يتكلم معي بعض إخواننا في الطريق، حالة فيضان الحقائق عليه، ولما طال الحال، أذنته في الذهاب، فانقبض حاله، وقال لي: هل تجد من تسمع منه كلاما أحسن من كلامي هذا حتى يخلفني؟ فقلت: لا والله لا أجد في هذا الوقت أحسن منه. فقال لي: فَلِمَ لا تنصت الي؟ فقلت له: تكلم وآت بما عندك. وكنت أعلم أن أهل هذا المقام لا يؤانسهم إلا من يكون معهم بالسكون والإنتظار.

ثم قال رضي الله عنه:

«وَمَعَ أَهْلِ الْمَقَامَاتِ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِنْكِسَارِ»

اي ينبغي للمريد أن يكون بين أهل المقامات المختلفة والرتب المتباينة بالتوحيد الخاص، والإنكسار في حضرتهم، لأنه لا يمكنه أن يؤانس كلا حسب مقامه.

وإذا كان على التوحيد الخاص والإنكسار، ففي الغالب يستأنسون بذلك لاصطلاحهم على التوحيد المطلق، وان اختلفت مراتبهم من وجوه، فقد اتحدت من وجه، لما قيل في هذا المعنى:

وكم بين حذاق الجدال تنازع ☆ وما بين عشاق المحبوب تنازع

والمريد له نظر في ذلك واسع، إن كان من ذوي الإحسان. ولهذا قال رضي الله عنه، معاملة كل شيء بما يؤانسه ولا يوحشه. وما ذكره المصنف من هذا الوصف، فهو عزيز جدا، فلا يوجد في كل مريد. فمن حصل عليه، فقد حصل على مكارم الأخلاق. ومن لم يحصل عليه، فلا بد أن يسعى في طلبه.

إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم. وكم في مكارم الأخلاق من الفضائل، لما في الحديث: **ينال الرجل بحسن خلقه درجة الصائم القائم**. وقوله عليه الصلاة والسلام: **إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة، أحسنكم خلقا**. وقوله ايضا: **لن تسعوا الناس بأموالكم فاسعوهم بأخلاقكم**. ولبعضهم في هذا المعنى:

بمكارم الأخلاق كن متخلقا ☆ ليفوح مسك ثنائك العطر الشذي
وانفع صديقك إن أردت كرامة ☆ وادفع عدوك بالتي فإذا الذي

وقد تقدم الكلام في قوله عليه الصلاة والسلام: **أدبني ربي فأحسن تأديبي**. وفي معنى الحديث قول بعضهم رحمة الله عليه:

خذ العفو وامر بعرف كما ☆ أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولن في الكلام لجميع الانام ☆ فمستحسن من ذوي الجاه لين

وإن كان هذا الحال، يتبغي للفقير أن يكون عليه مع جميع المخلوقين، فكيف بحاله مع المؤمنين، خصوصا مع إخوانه الذاكرين، بل ينبغي له أن يستفرغ كل أنواع الأدب في خدمتهم، ويرى نفسه أنه مقصر في حقهم.

وقد كنا وعدنا بذكر منظومة للمؤلف في هذا الفصل، فهي جامعة لبعض ما يحتاج إليه المريد مع إخوانه، وهي هذه بتمامها:

ما لـذة العيش إلا صحبـة الفقرا ☆ هم السـلاطين والسـادات والأمرا
فـاصحبهم وتـأدب في مجـالسهم ☆ وخل حظك مهما خلفوك ورا
واستغنم الوقت واحضر دائما معهم ☆ واعلم بأن الرضى يخص من حضرا
ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل ☆ لا علم عندي وكن بالجهل مستترا
ولا ترى العيب إلا فيك معتقدا ☆ عيبا بـدا بينـا لكنـه استترا
وحط رأسك واستغفر بلا سبب ☆ وقم على قدم الإنصاف معتـذرا
وإن بدا منك عيب فاعترف وأقم ☆ وجه اعتذارك عما فيك منك جرى
وقـل عبيـدكم أولى بصفحكم ☆ فسامحوا وخذوا بـالرفق يـا فقرا
هم بـالتفضل أولى وهـو شيمتهم ☆ فـلا تخـف دركا منهـم ولا ضررا
وبالتفتي على الإخوان جد أبـدا ☆ حسا ومعنى وغض الطرف إن عثرا
وراقب الشيـخ في أحوالـه فعسى ☆ يرى عليك مـن استحسانـه أثرا
وقدم الجد وانهض عنـد خدمتـه ☆ عساه يرضى وحاذر أن تكن ضجرا
ففي رضاه رضى الباري وطاعته ☆ يرضى عليك وكن من تركها حذرا
واعلم بـأن طريق القـوم دارسـة ☆ وحال من يدعيها اليوم كيف ترى
متى أراهم وأنّـى لي برؤيتهـم ☆ أو تسمـع الأذن مني عنهـم خبرا
من لي وأنّـى لمثلي أن يزاحمهـم ☆ على موارد لم آلـف بهـا كـدرا
أحبهـم وأداريهـم وأوثرهم ☆ بمهجتي وخصوصـا منهـم نفـرا
قوم كرام السجايا حيثـما جلسوا ☆ يبقى المكان على آثارهم عطـرا
يهدي التصوف من أخلاقهم طرفا ☆ حسـن التـآلف منهم راقني نظـرا
هم أهل ودي وأحبـابي الـذين هم ☆ ممن يجر ذيـول العـز مفتخـرا
لا زال شملي بهم في الله مجتمعـا ☆ وذنبنـا فيـه مغفورا ومغتفـرا
ثم الصـلاة على المختـار سيدنـا ☆ محمد خير مـن أوفى ومـن نـذرا

الفصل الخامس

في بيان العلم النافع

قال رضي الله عنه:

«الْعِلْمُ غُنْمٌ»

وكيف لا، وهي صفة توجب لمن قامت به أن يتصف بالإجلال **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.**
إلا أن العلم يعتبر باعتبار متعلقه، إما أن يكون بالله، وإما أن يكون بأحكام الله، وإما أن يكون بمصنوعات الله، والكل غنم من حيث نفي الجهل، إلا أن الغنم يختلف باختلاف ما تقدم من التعلقات.

فالعلم بالله جلت مكانته عما سواه، كما أن العلم بأحكام الله يجل عن العلم بمصنوعاته، إلا إذا كان العلم بالمصنوعات **أُنْمُوذَجاً** لمقتضى الذات، فينخرط فيما سبق.

وعلى كل حال، فالعلم له مكانة عند الله عز وجل حسب معلومه، إما بالأحكام وإما بمنزلها، فلكل جزاء، إلا أن العلم، إما مكسوب، وإما موهوب. فالمكسوب من جملة العمل، فالجنة جزاؤه. والموهوب جزاؤه المحبوب. لأن العلم بالله هو محض الفضل، ومجرد النوال إقبال من الحق على عبده بكشف الأستار. وهل يجازيه على ما أنعم عليه من الإقتراب ورفع الحجاب. وإن كان ولابد من الجزاء فهل يجازيه بأفضل مما جزاه حيث فتح

عليـه رضوانـه، كلا. **ورضـوان من الله أكبر.**

ثم قال رضي الله عنه:

«أَنْفَعُ الْعُلُومِ الْعِلْمُ بِأَحْكَامِ الْعَبِيدِ»

أي العلم المتعلق بفعل المكلف المعبر عنه بالفقه لقوله عليه الصلاة والسلام: **إذا أحب الله عبدا فقهه في الدين وألهمه رشده.** (الحديث) أي بسبب تفقهه في الدين لا يتجاوز حدود الله. فلهذا كان يحتاج إليه فى كل وقت وحال، إبتداء وانتهاء، فلا يستغني عنه مريد ولا مراد. فكل مكلف يحتاج له لكي لا يخرج عن حده، ولا يتعدي على غيره. قلت:

فمـــن عرف حكم الإلـــه تحصـــن ☆ ومن جهل الأحكام مال إلى العمى
ومن أنفع العلوم مـا تعـرف بـه ☆ ما للخلق من حق ومن دراه سمى

ثم قال رضي الله عنه:

«وَأَرْفَعُ الْعُلُومِ عِلْمُ التَّوْحِيدِ»

نعم هو أرفع العلوم وأزكاها، وأعظمها، وأعلاها. وكيف لا، وهو المتعلق بذات من ليس كمثله شيء. وقد تقرر عند جمهور العلماء، قدر العلم على قدر تعلقه، وإذا كان من هذا القبيل، فلا جرم يكون هو أرفع العلوم.

ومحط كلام المصنف في التوحيد الخاص المأخوذ عن مشاهدة وعيان وإن كان المأخوذ عن دليل وبرهان، هو من أشرف العلوم أيضا، غير أنه لا يتعدى طوره. فالحجاب غايته، وعدم الادراك نهايته.

وليس هذا من مقاصد المؤلف، بل مقصده وغايته، التوحيد الخاص، الذي قال فيه أستاذ هذه الطائفة أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إننا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والايقان، فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان، وإنا لا نرى أحدا من الخلق، وهل في الوجود أحد سوى الملك الحق؟ وإن كان ولابد، فكالهباء في الهواء، إذا فتشته لم تجده شيئا. فهذا بعض ما يدل على توحيد القوم، وإنه مباين لتوحيد العموم.

فالتوحيد عندهم هو تعظيم يملأ القلب، فيكل اللسان عن النطق به. وقد سئل الشيخ الحلاج رضي الله عنه عن التوحيد حالة قتله، فقال: أقل مراتب التوحيد ما تروني فيه! قال القشيرى رضي الله عنه: رأيت بخط الأستاذ أبي علي رحمة الله عليه، ان أحدا قال لصوفي أين الله؟ فقال: أسحقك الله، أتطلب مع العين أينا.

ولقد سألت بعض التلامذة حالة استغراقه في التعظيم، مستفهما من حاله، هل يمكن للروح أو السر أن يبلغ منتهى العظمة؟ فقال متعجبا من مقالي: فإن الله لم يبلغ علمه منتهى عظمته لفقد النهاية. فتحيرت لمقاله وعلمت أنه غائص في التعظيم مغلوب على أمره.

وحاصل الأمر، أن القول في توحيد القوم، ما قاله إبن عطاء الله رضي الله عنه في لطائف المنن قال: سمعت شيخنا أبا العباس المرسي رضي الله عنه يقول: إن لله عبادا محقوا أفعالهم بأفعاله، وأوصافهم بأوصافه، وذاتهم بذاته، وحمّلهم من أسراره ما تعجز عامة الأولياء عن سماعه. وهم الذين غرقوا في بحر الذات وتيار الصفات، فهي إذا فَنَاءَاتٌ ثلاث: أن يبقيك عن أفعالك بأفعاله، وعن أوصافك بأوصافه، وعن ذاتك بذاته.

وحاصل الأمر، إذا أراد الله بعبده خيرا، كشف له عن عظمته، وغمره في شنهوده، وأخذه من وجوده بما منه إليه. فسبحان المنفرد بالوحدانية، والتقدير: **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.**

ثم قال رضي الله عنه:

«مَنِ اكْتَفَى بِالتَّعَبُّدِ دُونَ فِقْهٍ، خَرَجَ وَابْتَدَعَ
وَمَنِ اكْتَفَى بِالفِقْهِ دُونَ وَرَعٍ اغْتَرَّ وانْخَدَعَ»

أي من اكتفى بالعبادة دون معرفة أحكامها، خرج وابتدع، لكونه لا يدري ما يفعل، ربما يرى الكمال في عين النقصان وهو لا يشعر. وعبادة بلا فقه معطلة، وربما تعود على صاحبها بالضرر، وكم في الجهل من ضرر. والمكلف لا يعذر بجهله.

وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، خصوصا معرفة أحكام ما يجب عليه، لما قيل لا يحل لامرئ أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه. ومن محبة الله لعبده أن يطلعه على

الأحكام، لقوله عليه الصلاة والسلام: **إذا أحب الله عبدا فقهه في الدين وألهمه رشده.** وقال أيضا: **من تفقه في دين الله عز وجل، كفاه الله تعالى ما أهمه، ورزقه من حيث لا يحتسب.** وقوله أيضا: **ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين. ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد. ولكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه.** وقوله أيضا: **فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي.** فانظر بارك الله فيك، ما شأن الفقه عند الله. وقد تبين لك أن العبادة بدونه بطالة.

فاجتهد بارك الله فيك في طلبه. فإن الخير كل الخير في معرفته. ولابن الوردي رضي الله عنه:

أطلب العلم ولا تكسل فما ☆ أبعد الخير على أهل الكسل
احتفل للفقه في الدين ولا ☆ تشتغل عنه بمال وخول
واهجر النوم وحصله فمن ☆ يعرف المطلوب يحقر ما بذل
لا تقل قد ذهبت أربابه ☆ كل من سار على الدرب وصل
في ازدياد العلم إرغام العدا ☆ وجمال العلم إصلاح العمل

ولنا في ذلك:

العلم نور الله في القلب يقذفه ☆ والقلب بيت الله والعلم ضياه
والخوف ينبئك هل هو ساكنه ☆ والذكر إن تمادى يحقق سكناه
ما العلم إلا وصف جميل لأهله ☆ فمن كان ذا علم فهذا معناه

ومن اكتفى بالتعبد دون معرفة أحكامه، فلا محالة يخرج عن جادة الطريق، ويزيد في العبادة ما ليس منها وهو لا يشعر. أخبرني بعض العوام أنه دخل مع إمام في صلاة العصر وكان ذلك

عصر جمعة فترتب على الإمام السجود القبلي فلما سجد، وتفرق المصلون، ظن ذلك الرجل أن عصر الجمعة له سجدتان زائدتان على بقية الصلوات فصار يفعلها إلى أن أخبرني بذلك.

وكان ينشدنا بعض الفقهاء في مجلسه:

عبـــادة بـــلا علم في الـــريح ☆ كالـــــرقم في الحلاســـــه
كمن يغســـل الـــدم بالـــدم ☆ فهـــل يصفى مـــن النجاســـه

ثم اعلم أن فضل العلم والمتعلم معقول عند كل من له أدنى انتباه، فلا يحتاج للتطويل، وعليه فلا ينبغى للمؤمن أن يكتفي بالعبادة، كما تقدم، دون فقه. وإذا كان فقيها لا ينبغي له أن يكتفى بالفقه دون ورع، لقول المصتف، من اكتفى بالفقه الخ.أي من تزين بالعلم دون الخشية من الله، فقد أحاط به بأس شديد، لما يروى في الخبر: **ويل لمن لا يعلم مرة، وويل لمن يعلم ثم لا يعمل سبعين مرة.** فليس المراد من العلم إلا العمل به. فلا تغتر يا أخي، وتحسب أن مدح الفقه والفقهاء هو مجرد ضبط الرسوم والألفاظ. فالأمر ليس كذلك. فتعلم العلم لتعامل به الله. فإن قصدته من هذا القبيل، فلا محالة تكون ممدوحا عند الله وعند خلقه. وإياك أن تقصد به غير الله. قال في لطائف المنن: ربما غر الغافل من طلبة العلم من قال: طلبناه لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله. وليس في قول هذا القائل ما يستروح إليه من طلب العلم للرياسة والمنافسة به. إنما أخبر هذا القائل عن أمر مُنَّ به عليه، وفتنة سلمه الله منها، لا يلزم أن يقاس عليه فيها غيره. وذلك بمثابة من به مرض مزمن في المعي أعيا علاجه الأطباء، وضاق

عليه خلقه، فأخذ خنجرا وضرب به مراق بطنه ليقتل نفسه، فصادف ذلك المعي فقطعه، فخرج الداء منه. فهذا لا يستصوب العقلاء فعله، وإن نجحت عاقبته، وليست سلامة العواقب رافعة للعتب عن الملقين أنفسهم للتهلكة. ليس المخاطر محمودا وإن سلم. والمعنى أن الفقه لايكون ممدوحا إلا إذا كان يرجى به وجه الله. ولهذا عزت الفقهاء، وقل وجودهم، لقوله عليه الصلاة والسلام: **كم من حامل فقه ليس بفقيه.** قال فرقد الشنجي سألت الحسن عن مسألة فأجابني عنها، فقلت له: إن الفقهاء يخالفونك، فقال: ثكلتك أمك، وهل رأيت فقيها بعينك، إنما الفقيه، الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، البصير بدينه المداوم على عبادة ربه، الورع الكافي نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم، المجتهد في العبادة، المقيم على سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، الذى لا ينبذ من هو فوقه ولا يسخر ممن هو دونه، ولا يأخذ على علم علمه الله له حطاما. وقد سأله رجل عن مسألة أيضا فأجابه فيها، فقال له الرجل: قد خالفك الفقهاء. فزجره وقال له: ويحك وهل رأيت فقيها، إنما الفقيه من فتق الحجاب عن عين قلبه.

اللهم ارزقنا فقها ترضاه، وعملا ترضى به، وارزقنا قوة على القيام بما أوجبته علينا، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

ثم قال رضي الله عنه:

«وَمَنْ قَامَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ تَخَلَّص وَارْتَفَعَ»

أي إذا قام العبد بما يجب عليه من الأحكام في سائر معاملته مع الله ظاهرا وباطنا، وقام بأدب الأوقات بحيث لم يضيع حكمة وقته، فقد تخلص وارتفع إلى رتبة سنية، والحكمة تساعده، لأنها ترفع العبد المملوك وتجلسه مجالس الملوك، وقد تجب على العبد أحكام باعتبار مقامه.

فكل إنسان يعلم من نفسه ما يجب عليه، فهو مطلوب أن يؤدي حق الله باعتبار حاله، ومن لم يقم بما وجب عليه فقد تهاون بأمر الله عز وجل، فلا جرم يسقط من رتبته لكونه لم يوف بحقها، وإذا كان في مقام الإسلام، ولم يقم بما وجب عليه من الأحكام لم يرتضه الإسلام لعدم وفائه لحقه. وإذا كان في مقام الإيمان ولم يوف بأحكامه، لم يرتضه الإيمان حيث لم يقم بحقه. وإذا كان في مقام الإحسان ولم يقم بما يستحقه فهو ليس بمحسن.

وهكذا فلكل مقام أحكام. فلا بد للإنسان أن يقوم بأحكام دينه، ويؤدي ما وجب عليه، لكي يتخلص من ذلك المقام إلى غيره، ويرتفع إلى رتبة سنية، لقول المصنف: من قام بما يجب عليه من الأحكام تخلص وارتفع إلى رتبة غير الأولى. وقوله عليه الصلاة والسلام: **من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.**

ثم قال رضي الله عنه:

«مَنْ سَمِعَ العِلْمَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ أَعْطَاهُ اللَّهُ فِيمَا يُعَرِّفُ بِهِ النَّاسَ وَمَنْ تَعَلَّمَ العِلْمَ لِيُعَامِلَ بِهِ الحَقَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ فِيمَا يُعَرِّفُهُ بِهِ»

فضائل العلم كثيرة من أن تحصى وأجره يتضاعف باعتبار المقاصد، فمن سمعه ليعلم به الناس أعطاه الله عز وجل حيث نوى الدلالة على الخير. والدال على الخير كفاعله. **فمن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم الدين.** فيتضاعف أجره بقدر من تعلم عليه وعمل بعلمه، لقوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه ابن ماجة، عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال: **افضل الصدقة ان يتعلم المرء المسلم علما، ثم يعلمه اخاه المسلم.** واخرج الطبراني عن صفوان بن عسال الموادي رضي الله عنه قال: اتيت النبي ﷺ وهو في المسجد متكيء على برد له احمر، فقلت له: يا رسول الله إني جئت أطلب العلم فقال رسول الله ﷺ: **مرحبا بطالب العلم، إن طالب العلم لتحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضا، حتى يبلغوا سماء الدنيا من محبتهم لما يطلب.** وقال عليه الصلاة والسلام: **فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم. إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرضين، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير.**

وحاصل الأمر، **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرئ ما نوى.** فهذه حالة من تعلم العلم ليعلم به الناس بنية صالحة، وأما من تعلم العلم ليعامل به الحق عز وجل، فتلك درجة الصديقين، حيث تعلم العلم لمقتضاه، فيجازيه الحق عز وجل بمعرفته إذ لا جزاء فوقها. ولهذا قال المصنف: أعطاه الله فيما يعرفه به. ولا قصد أنجح في تعليم العلم مثل هذا القصد. فإنه سبيل موصل لحضرة الله يأخذ بيد صاحبه إلى أن يصل به إلى منتهاه. ومنتهى العلم، لله العظيم. فتعلم أخي العلم لتعامل به الله فإذا طلبته من بابه، فلا محالة تصل إليه. **وأن إلى ربك المنتهى.** قلت:

ألا في طلب العلم فضل كفى بـه ☆ وكل امرئ يجزى بقدر نيـتـه

فهذا بيان من تعلم العلم ليعامل به الله عز وجل. وأما من تعلم العلم ليعلم به الناس فينتهي في تعليمه للناس، فهو على كل حال محمودٌ، إن مازجته خشية وإخلاص، والعلم فيما نعرف والله أعلم، مبرأ من أضداد ما ذكرناه، وكيف لا، وقد مدحته الشريعة الغراء والكتاب العزيز، فمن ذلك قوله تعالى: **قال الذين أوتوا العلم.** وقوله أيضا **والراسخون في العلم.** وقوله عليه الصلاة والسلام: **إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم،** وهل الملائكة تضع أجنحتها لمن لم يتصف بحقيقته؟ كلا إنما الزبانية أسرع به، **إنما يخشى الله من عباده العلماء.**

قال في التنوير: اعلم أن العلم حيث تكرر ذكره في الكتاب والسنة إنما المراد به العلم النافع الذى تقارنه الخشية، وتكتنف به المخافات. ثم قال: القاهر للهوى القامع للنفس. وذلك يتعين

بالضرورة، لأن كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، أجل من أن يحمل على غير هذا. وكيف يحمل على غير هذا، وقد قال عليه الصلاة والسلام في المتصفين به: إنهم **ورثة الأنبياء.** وما أحسن ما قيل فيه:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ☆ على الهدى لمن استهدى ادلاّء
وقدر كل إمرئ ماكان يحسنه ☆ والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا ☆ الناس موتى وأهل العلم أحياء

ومن أحسن المقاصد في طلب العلم، أن يقصد المتعلم بذلك وجه الله. وفي هذا المعنى قال بعضهم:

تعلم ما استطعت لقصد وجهه ☆ فإن العلم من سفن النجاة
وليس العلم في الدنيا بفخر ☆ إذا ما حل في غير الثقات
ومن طلب العلوم لغير وجهه ☆ بعيد أن تراه من الهداة

كان السلف الصالح رضوان الله عليهم، إذا تعلم أحدهم مسألة بادر إلى العمل بها. فلا تحسب أخي أن المقصود من العلم هو حفظ الأقوال والقوافي، وتطريق اللسان مع خلو الجنان. فلا يكون العالم عالما في عرف الدين الحنيف، إلا إذا عمل بعلمه، وإلا فتلك حجة الله عليه. يروى في الخبر أن جهنم أسرع لقراء هذه الأمة من عبدة الأوثان. كان إبراهيم ابن أدهم رضي الله عنه يقول: قد غلب على العباد والنساك والعلماء في هذا الزمان التهاون بالذنوب حتى غرقوا في شهوة بطونهم وفروجهم، وحجبوا عن شهود عيوبهم، فهلكوا وهم لا يشعرون، أقبلوا على أكل الحرام، وتركوا طلب الحلال، ورضوا من العمل بالعلم، يستحي أحدهم أن

يقول فيما لا يعلم، لا أعلم. هم عبيد الدنيا لا علماء الشريعة. إذ لو عملوا بالشريعة لمنعتهم عن القبائح، إن سألوا أَلَحُّوا، وإن سئلوا شحوا. لبسوا الثياب على قلوب الذئاب. اتخذوا مساجد الله التي يذكر فيها اسمه برفع أصواتهم باللغو والجدال، والقيل والقال. واتخذوا العلم شبكة يصطادون بها الدنيا، فإياكم ومجالستهم.

وقال بشر الحافي رضي الله عنه: كان العلماء رضي الله عنهم موصوفين بثلاثة أشياء: صدق اللسان؛ وطيب المطعم؛ وكثرة الزهد في الدنيا. وأنا اليوم لا أعرف في هؤلاء أحداً فيه واحدة من هذه الخصال. ثم يقول ويحكم يا علماء السوء! أنتم ورثة الأنبياء، وإنما ورثوكم العلم فحملتموه وزغتم عن العمل به، وجعلتم علمكم حرفة تكسبون به معاشكم. **وقيل في مثل هؤلاء:**

يا أيها الرجل المعلم غيره ☆ هلَّا كان لنفسك ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى ☆ كيا يصح به وأنت سقيم
ونراك تلقح بالرشاد عقولنا ☆ نصحا وأنت من الرشاد عديم
إبدأ بنفسك فانهها عن غيها ☆ فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ☆ بالوعظ منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتاتي مثله ☆ عار عليك إذا فعلت عظيم

الفصـــل الســـادس

في فضل الذكر ومجالسة الذاكرين

قال رضي الله عنه:

«مَنْ جَالَسَ الذَّكِرِينَ انْتَبَهَ مِنْ غَفْلَتِهِ، وَمَنْ خَدَمَ الصَّالِحِينَ انْتَفَعَ بِخِدْمَتِهِ»

من جالس الذاكرين كان من جلساء الله، وكيف لا ينتبه من غفلته. ففي الغالب تعود بركة الحضور عليه، وهو الإنتباه من الغفلة حتى يصير ذاكرا. ولهذا يقال الذاكر مع الغافلين غافل، والغافل مع الذاكرين ذاكر، لما سيعود عليه من بركة الذكر. ولهذا ينبغي للإنسان أن لا يجالس إلا الذاكرين، لأن مجالسة الذاكرين ذكر، لما يروى في فضل مجالس الذكر، وانها من رياض الجنة. قال عليه الصلاة والسلام: **إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر في الأرض، فارتعوا في رياض الجنة. قالوا وما رياض الجنة؟ قال مجالس الذكر. فاغدوا وروحوا في ذكر الله وذّكروه انفسكم.** وقال أيضا عليه الصلاة والسلام: **ما من قوم يذكرون الله، إلاحفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده.** وأخرج أحمد في الزهد عن ثابت قال: كان سلمان في عصابة يذكرون الله تعالى، فمر النبي صلى الله عليه وسلم فكفوا. فقال: **اني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت ان أشارككم فيها.** ثم قال: **الحمد لله الذي**

جعل من أمتي زمرا أن أصبر نفسي معهم. وأخرج الأصفهاني في الترغيب عن أبي رزين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: **ألا أدلك على ملاك الأمر الذي تصيب به خير الدنيا والآخرة؟ قال: بلى! قال: عليك بمجالس الذكر، وإذا خلوت فحرك لسانك بذكر الله عز وجل.** وقال عليه الصلاة والسلام: **لأن أذكر الله تعالى مع قوم بعد صلاة العصر إلى أن تغيب الشمس أحب إلي من الدنيا وما فيها، ولأن أذكر الله تعالى مع قوم بعد الفجر إلى طلوع الشمس أحب إلي من الدنيا وما فيها.** وقال عليه الصلاة والسلام: **رياض الجنة حلق الذكر، فإذا مررتم برياض الجنة فارتعوا،** يعني اجلسوا معهم فيها. وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال ﷺ: **إن لله تعالى ملائكة سيارة وفضلا يلتمسون مجالس الذكر في الأرض، فإن أتوا على مجلس حف بعضهم بعضا بأجنحتهم إلى السماء، فيقول الله عز وجل: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عبادك، يسبحونك، ويكبرونك ويحمدونك، ويهللونك ويسألونك ويستجيرونك. فيقول: ما يسألوني؟ وهو أعلم بهم. فيقولون: يسألونك الجنة. فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا يارب. فيقول: كيف لو رأوها!... فيقول: ومما يستجيروني؟ وهو أعلم بهم. فيقولون: من النار. فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا. فيقول: وكيف لو رأوها!... ثم يقول: أشهدوا أني قد غفرت لهم وأعطيتهم ماسألوني، وأجرتهم مما استجاروني، فيقولون: ربنا فيهم عبدا أخطأ، جلس إليهم. فيقول: قد**

غفرت له أيضا، لأنهم هم القوم لا يشقى بهم جليسهم. وأي فضل أعظم من هذا الفضل حتى صار المخطيء يغفر له بسبب مجالسة الذاكرين.

وحاصل الأمر ينبغي للمؤمن أن يتسبب فيما ينزع غفلته، ولا يكون له ذلك إلا بمجالسة المتنبهين. قال ﷺ: **جالسوا من تذكركم بالله رؤيته،** وكان ينهى عليه الصلاة والسلام عن مجالسة الأموات. ويعني بهم أموات القلوب الغافلين عن الله. وقال فيهم ﷺ: **ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار وكان عليهم حسرة يوم القيامة.** فمجالسة هؤلاء سم قاتل، إياك أخي ومجالستهم، فإن المجالسة مجانسة والطبع جلاب، ومع من تكون بحاله تكن، فلهذا ينبغي للإنسان أن لا يجالس ولا يصحب إلا صاحب الشعور، المتصف بالذكر والحضور، لكي يتنبه من غفلته بسبب مجالسته له.

وأما خدمة الذاكرين والصالحين فالإنتفاع بها معلوم بالضرورة لقول المصنف: من خدم الصالحين انتفع بخدمته. والمراد بالصالحين من صلحت سيرتهم، وصفيت سريرتهم، المتفرغون من تهذيب نفوسهم، المستريحون من شرها، باطنا وظاهرا. فمن خدم مثل هؤلاء، في الغالب تعود عليه بركتهم، وسر الله منوط بخدمة الرجال، لما قيل: والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح. ومن لم يخدم الصالحين لم ينتفع بشيء من أسرارهم. وكيف ينتفع وهو لم يسخ بخدمته لهم، وبالتذلل على أعتابهم. ومن أين يحصل له النفع الذي هو موقوف على صحبتهم. قال وهو أصدق القائلين:

واتوا البيوت من أبوابها. وقال أيضا: **وابتغوا إليه الوسيلة.**

قال أستاذنا الشيخ سيدي محمد البوزيدي رحمة الله عليه:

من لا اعرف ما بنا ☆ معذور والحق امعاه
من لا اقرب ما جرب ☆ ما شاف من شاف الله
نحن احباب ربي ☆ والحب فينا منشاه
فلذ بنا تحظى ☆ وشم فينا شذاه

فاصحب يا أخي العارفين وانهض في خدمتهم. فمن صحبهم انتفع بصحبتهم، ومن خدمهم انتفع بخدمتهم وشم فيهم رائحة الحق. فهم أبواب الحضرة الإلهية. وقل كمن قال:

لى سادات اقدامهم فوق الجباه ☆ إن لم أكن مثلهم فلي في حبهم عز وجاه

ثم إن العارف بالله، إذا رضي على من يخدمه أغناه. وقد تقدم قول أبي العبّاس المرسي رضي الله عنه: ما بيني وبين مريدي إلا نظرة واحدة، فإذا نظرته أغنيته. وكذلك قول أبي الحسن رضي الله عنه: ما أصنع بالكيمياء؟ والله لقد تلاقينا رجالا، لو أشار أحدهم الى شجرة يابسة لأثمرت من حينها. فمن لم يصحب هؤلاء الرجال، فمن أي طريق يدخل على الله؟ ومن أي منوال يصل إليه. لما قيل في(لطائف المنن)إنما يكون الإقتداء بِوَلِيٍّ دَلَّكَ الله عليه، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته في وجود خصوصيته، فالقيت إليه الانقياد، فسلك بك سبيل الرشاد، يعرفك برعونات نفسك في كمائنها ودفائنها، ويدلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار عما سوى الله، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله، يوقفك

على إساءة نفسك، ويعرفك بإحسان الله إليك، والإقبال عليه والقيام بالشكر إليه، والدوام على ممر الساعات بين يديه. فهذا بعض من نعت الصالحين الذين تعينت على المريد خدمتهم.

ثم قال رضي الله عنه:

« حَامِلُ العِطْرِ إِنْ لَمْ يُعْطِكَ عِطْرَهُ مَتَّعَكَ بِنَشْرِهِ »

هذا مثال في مخالطة الرجال، خصوصا العارفين بالله، فمجالستهم لا تخلو من فائدة لما قيل:

عليك بأرباب الصدور فمن غدا ☆ مضافا لأرباب الصدور تصدرا
وإياك أن ترضى بصحبة ساقط ☆ فتحط قدرا من علاك وتحقرا

فهم حملة المسك الأذفر، والكبريت الأحمر، مسك وأي مسك، لو عبقت نسمته لأسكرت من في الوجود. وكيف لا، وهو من عين الحقيقة مأخوذ.

ولو عبقت في الشرق أنفاس طيبها ☆ وفي الغرب مزكوم لعاد له الشم

وللأمير عبد القادر رضي الله عنه في مدحهم:

وليس في طاقتي الرؤيا لغيرهم ☆ ولو قتلتنى الورى في ذاك وشاحوا
غرقت في حبهم دهرا ألم ترنى ☆ في بحرهم سفن حقا وملاح
ماذا على من رأى يوما جمالهم ☆ أن ليس تبدو له شمس وأصباح
جبال مكة لو شمت محاسنهم ☆ حنواومن شوقهم ناحواوقد صاحوا
شهب الدراري مدى الأيام سابحة ☆ لو أبصرتهم لما جاءوا ولا راحوا
لو كنت أعجب من شيء لأعجبني ☆ صبر المحبين ما ناحوا ولا باحوا

ماذا يمدح المادح ! أيمدح ويوفي بمدح من لا تنتهي محاسنهم، أهل السر المصون والعلم المكنون ! فاز من شم شذاه وحاز من اقتناه، ترى ذائقه تلوح عليه أنوار الهيبة والجلال. إذا تكلم أغنى ، وإن نظر أفنى . فحقه أن يقول أنا. ولا عليه من عنا. فيا ما أحسن نطقهم! قلت:

كلامهم ما أحلاه يصغى لصوته ☆ كأنه تسبيح من الملأ الأعلى

وقد رأيت الكثير من جلساء هؤلاء القوم، خرجوا من عندهم وعلى اثرهم من رائحة علمهم، حتى تظن أنهم من ذويه، مع أنهم لم يحصلوا على رائحته. وكل ذلك بسبب مجالستهم لأهله. وللمؤلف رحمه الله:

قوم كرام السجايا حيثما نزلوا ☆ يبق المكان على آثارهم عطرا

فكل من جالسهم وتحبب إليهم، فلا جرم يأخذ نصيبا مما لهم. وللأرض من كأس الكرام نصيب. حافظ أخي،بارك الله فيك، على مجالسة أهل الله العارفين. فإن الرحمة تعمهم،والرضى يشملهم، فهم في حضرة الله يتقلبون، فإن لم تكن في حضرته، فكن في حضرتهم، مع من تكون بحاله تكون. التابع كالجزء من المتبوع، وقد يقوم المضاف مقام المضاف إليه، وقيل أنهم كالشيء الواحد. قال بعضهم: رأيت المصطفى ﷺ فقلت له: **يارسول الله إنني متطفل على القوم. فقال لي: اصحب القوم وحافظ على ذلك، فإن المتطفل عليهم هو الولي.**

وقد تقدم قوله ﷺ: **مامن قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده.**

فَمُجَالِسُهُمْ لا محالة تغشاه الرحمة وتحفه الملائكة لاضافته لهم،

وقربه منهم، «والصاحب بالجنب». وللمؤلف رحمة الله عليه:

واستغنم الوقت واحضر دائما معهم ☆ واعلم بأن الرضى يخص من حضرا

كان يقول ﷺ: **إن لله تعالى ملائكة يطوفون في الطريق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله، تنادوا هلموا إلى حاجتكم! فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء ويقول الحق تبارك وتعالى: أشهدكم إني قد غفرت لهم، فيقول ملك من الملائكة: يارب فيهم فلان خطاء، وإنما مر فجلس معهم. فيقول الله تبارك وتعالى: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم.** أسأل الله أن يحقق نسبتنا إليهم ويمتعنا بنشرهم آمين.

ثم قال رضي الله عنه:

«إِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدٍ خَيْراً آنَسَهُ بِذِكْرِهِ وَوَفَّقَهُ لِشُكْرِهِ»

فمن علامة محبة الله عز وجل لعباده أن يجري على ألسنتهم من ذكره، وأن يوفق بواطنهم لشكره، ويكون لهم الاستئناس، أولا بالإسم، ثم يصير بالمسمى، لأن الإسم دليل على المسمى. فمن اشتغل به، فلا بد أن يأخذه إلى مسماه. ولهذا اشتغلت به هذه الطائفة حتى تخلصوا من كل ما سواه. ولبعضهم في هذا المعنى:

والله ما طلعت شمس ولا غربت ☆ إلا وذكرك مقرون بأنفاسي

ولا جلست إلى قوم أحدثهم ☆ إلا وكنت حديثي بين جلاسي

ولا شربت زلال الماء من ظمإ ☆ إلا شهدت خيالا منك في الكاس

وقال غيره

جمالك في عيني ☆ وذكرك في فهمي ☆ وحبك في قلبي ☆ فأين تغيب

فهذه حالة من أخذه الإسم إلى مسماه. فاشتغل أيها المريد بإسم الله وافن فيه حياتك العزيزة. فإنه والله عزيز، ولا فوقه عزيز، إلا ما هو نتيجته وهي المعرفة. يقول الله عز وجل في بعض الأحاديث القدسية: **ما أعظم من ذكري إلا معرفتي.** ومعرفة الله لا تنشأ إلا عن استغراق في الإسم الأعظم. ومن لم يترنم بذكر الله، ويستغرق في معناه، فليس له حظ في محبة الله، لقوله عليه الصلاة والسلام: **من لم يهتز بذكر الحبيب فليس بحبيب.** ولبعضهم في هذا المعنى:

طـابت حيـاتي وضـاء قلبي ☆ بـذكر رب جـل ثنـاه

إني إذا مـا ذكـرت ربي ☆ أهتز شوقـا إلى لقـاه

مـا قلـت للقلـب أين ربي ☆ إلا وقـال الضمير هـاهو

يروى في الخبر أن المفردون، هم المهتزون بذكر الله يضع الذكر أثقالهم، رجال فنوا في ذكره حتى صار لسانهم يذكر بغير استعمال، وقلبهم شاكر في سائر الأحوال، والجسد ممتثل على خير الأعمال. وقد قيل في هذا المعنى:

أهل المحبة ما قالوا الذي وجدوا ☆ حتى لـربهم في الخلـوة انفـردوا

الذكر مطعمهم والشكـر مشربهم ☆ والوجد مركبهم من أجل ذا سعدوا

تراهم الدهر لا يمضون مـن بلـد ☆ إلا ويبكي عليهـم ذلـك البلـد

وعن عثمان ابن مرزوق رضي الله عنه قال: سمعت والدي يقول: خرجت مرة سائحا في جبل المقطم بقرافة مصر

فمكثت أياما لا أرى أحدا، فسمعت ليلة عند السحور قائلا يقول في مناجاته، بصوت يزعج القلوب، وحنين يذهب العقول: كتمت بلائي عن غيرك، وبحت بسري إليك، واشتغلت بك عما سواك. ثم انتحب باكيا وقال: عجبت لمن عرفك كيف يسلو عنك، ولمن ذاق حبك كيف يصبر عنك، يا آمال العارفين وحبيب المقربين، وأنيس المحبين وغاية آمال الطالبين، ومعين المنقطعين. ثم صاح واشوقاه إليك واكرباه، فتبعت الصوت وقد أخذ بمجامع قلبي حتى انتهيت إليه، فإذا هو شيخ نحيف البدن، أصفر اللون تعلوه هيبة، وعليه سمة أهل المعرفة. فدنوت منه وسلمت عليه. فقال: مرحبا بك يا عمر. فقلت له: وكيف عرفت إسمي وما رأيتني قبل هذه الساعة. فقال: نظرت شخصك في الأرض، فعرفت مقامك في السماء، وقرأت إسمك في اللوح المحفوظ. فقلت له: يا سيدي فدني فائدة. فقال:

يا عمر: أوحى الله عز وجل لداود عليه السلام: [يا داود قل لأوليائي وأحبائي يفارق كل منهما صاحبه، فإني مؤنسهم بذكري ومحدثهم بأنسي، واكشف الحجاب فيما بيني وبينهم لينظروا عظمة وجودي وبهاء وجهي، في كل يوم أدنيهم وفي كل ساعة أقربهم من نور وجهي، وأذيقهم من طعام كرامتي. فإذا فعلت ذلك بهم عميت نفوسهم عن الدنيا وأهلها. فما شيء آنس إليهم مني ولا أقر لعيونهم من النظر إلي. يستعجلون القدوم علي، وأنا أكره أن أميتهم لأنهم موضع النظر من بين خلقي، أنظر إليهم وينظرون إلي، فلو رأيتهم وقد ذابت نفوسهم ونحلت أجسامهم، وخشعت

عيونهم وتهشمت أعضاؤهم، وانخلعت قلوبهم اذا سمعوا ذكري، أباهي بهم ملائكتي وأهل السموات، ينظرون إلي فيزدادون خوفا وعبادة، وإن ناجوني أصغيت إليهم، وإن دعوني أقبلت عليهم، وإن أقبلوا إلي أدنيتهم، وإن دنوا مني قربتهم، وإن ولوني وليتهم، وإن صفوني صفيتهم، وإن عملوا إلي جازيتهم. أنا مدبر أمورهم وسايس قلوبهم عندي. فوعزتي وجلالي، لأمكننهم من رؤيتي، ولأشبعنهم من النظر إلي، حتى يرضوا وفوق الرضى. فبلغ يا داود أهل الأرض أني حبيب لمن حبني، وجليس لمن جالسني، وصاحب لمن صحبني، ومطيع لمن أطاعني ومختار لمن أختارني، فهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومعاملتي، وأنا الجواد المجيد، أقول للشيء كن فيكون] ثم خنقته عبرة حتى غشي عليه، فلما أفاق قلت له: يا سيدي أوصني. فقال: يا عمر إقطع عن قلبك كل علاقة، ولا تتضع لشيء دونه. فقلت: يا سيدي أدع لي. فقال: خفف الله عنك مؤن نصب السير، ولا جعل بينك وبينه حجابا. ثم ولى كالهارب وهو يقول:

ذكرتك لا أني نسيتك لمحة ☆ وأيسر ما في الذكر ذكر اللسان
وكدت بلا وجد أموت من الهوى ☆ وهام على القلب بالخفقان
فلما رآني الوجد أنك حاضري ☆ شهدتك موجودا بكل مكان
فخاطبت موجدا بغير تكلم ☆ ولاحظت معلوما بغير عيان

هذا حال المستأنس بذكر الله عز وجل حتى امتزج الذكر بلبه بل بلحمه وعظامه. قيل أن الحلاج لما قتل وسال دمه كتب على الأرض لااله الا الله الحلاج ولي الله.

ومما يروى عن بعضهم أنه كان نائما ولسانه يذكر الله بأفصح المقال. فهذه علامة الإمتزاج حتى إذا سألت أحدهم من أنت؟ يقول لك: لا اله الا الله. قال بعضهم خرجت من المسجد الحرام أريد جبل أبى قُبَيْسْ فصحبني عبد أسود وهو يقول أنت أنت يا هــو ياهو،لايزيد على ذلك شيئا. فلما أكثر من القول قلت يا هذا: أمجنون أنت؟ فقال: يا شيخ إنما المجنون من يمشي ألف خطوة ولم يذكر مولاه. فقلت له: أفضل الذكر عند المحققين ما كان بالقلب. فقال: صدقت،ولكن القلب إذا إمتلأ بالذكر، فاض على اللسان. ثم ذهب عني فلم أراه فندمت على جفائي عليه. فلما كان الليل ونمت هتف بي هاتف وقال: يا شيخ، إن لذلك العبد الأسود يوم القيامة نورا يملأ ما بين السماء والأرض. فلله درهم،فياله من مقام خصهم الحق عز وجل به، حتى كانوا من جلسائه.

كم للذكر من فضائل،وكم له من نتائج، فمن نتائجه رفع الحجاب ودوام الإقتراب. الذاكر حبيب الله على أي حالة كان، فهو مذكور عند الله لقوله: **أذكروني أذكركم.** فلازم الذكر أيها المريد،فإنه نعمة من الله عظيمة عليك، وقيدها بالشكر. ومن شكر النعمة القيام بحقوقها، فشكر الذكر الدوام عليه. فيالها من موت وياله من حشر

اللهم اشغلنا بذكرك،ووفقنا لشكرك، وانصرنا على أنفسنـــا يا نعم المولى ونعم النصير.

ومما يروى عن بعضهم أنه كان نائما ولسانه يذكر الله بأفصح المقال. فهذه علامة الإمتزاج حتى إذا سألت أحدهم من أنت؟ يقول لك: لا اله الا الله. قال بعضهم خرجت من المسجد الحرام أريد جبل أبى قُبَيْسْ فصحبني عبد أسود وهو يقول أنت أنت يا هــو ياهو،لايزيد على ذلك شيئا. فلما أكثر من القول قلت يا هذا: أمجنون أنت؟ فقال: يا شيخ إنما المجنون من يمشي ألف خطوة ولم يذكر مولاه. فقلت له: أفضل الذكر عند المحققين ما كان بالقلب. فقال: صدقت،ولكن القلب إذا إمتلأ بالذكر، فاض على اللسان. ثم ذهب عني فلم أراه فندمت على جفائي عليه. فلما كان الليل ونمت هتف بي هاتف وقال: يا شيخ، إن لذلك العبد الأسود يوم القيامة نورا يملأ ما بين السماء والأرض. فلله درهم،فياله من مقام خصهم الحق عز وجل به، حتى كانوا من جلسائه.

كم للذكر من فضائل،وكم له من نتائج، فمن نتائجه رفع الحجاب ودوام الإقتراب. الذاكر حبيب الله على أي حالة كان، فهو مذكور عند الله لقوله: **أذكروني أذكركم**. فلازم الذكر أيها المريد،فإنه نعمة من الله عظيمة عليك، وقيدها بالشكر. ومن شكر النعمة القيام بحقوقها، فشكر الذكر الدوام عليه. فيالها من موت ويالهـ من حشر

اللهم اشغلنا بذكرك،ووفقنا لشكرك، وانصرنا على أنفسنــــا يا نعم المولى ونعم النصير.

ثم قال رضي الله عنه:

«مَنْ لَمْ يَغْفَلْ عَنْ ذِكْرِكَ فَلاَ تَغْفَلْ عَنْ ذِكْرِهِ وَمَنْ لَمْ يَغْفَلْ عَنْ شُكْرِكَ فَلاَ تَغْفَلْ عَنْ شُكْرِهِ»

إذا علمت أيها المريد أن الله تبارك وتعالى مع عظمته وعلوّ مكانته إذا ذكرته لم يغفل عن ذكرك مع ضعفك وحقارتك بالنسبة لعظمته فكيف تغفل أنت عن ذكره، بل ينبغي لك أن تذكره مستحضرا لقوله تعالى: **أذكروني أذكركم.** قال بعضهم في هذا المعنى:

الله الله اذكـــره استحضـــارا ☆ اذكـــروني اذكـــركم استنـــارا

ويروى في الخبر أن موسى عليه السلام قال في مناجاته: يا رب أأنت بعيد نناديك أم قريب نناجيك؟ قال: يا موسى أنا جليس من ذكرني وأنا معهم حين يذكرونني. وقد روي أيضا في بعض الأحاديث القدسية أن الله عز وجل يقول: **إن ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منه.** وإذا تحقق عندك هذا فهل يغنيك شيء عن ذكره، حيث صرت مذكورا عنده في نفسه و في الملإ الأعلى بين ملائكته، وهل يبقى على هذا الفضل من مزيد، فمن لم يعمل به، **يخش** عليه وعـــيد، وما ربك بظلام للعبيد.

ثم اعلم أن الذكر هو أعظم الأبواب وأقرب المسالك في الدخول على الله فإذا أنعم الله به على عبده وفتح له بابا في ذلك، فقد رخص له في الدخول لحضرته لما قيل: ان الذكر منشور الولاية.

الـذكر أفضـل بـاب أنت داخله ☆ لله فاجعل لـه الأنفـاس حراسـا

وقال الإمام القشيري رضي الله عنه: الذكر عنوان الولاية،ومنار الوصلة وتحقيق الإرادة،وعلامة صحة البداية،ودلالة صفاء النهاية. ولم يرد في أفعال البر ما هو أفضل من الذكر، ولو لم يرد فيه إلا قوله صلى الله عليه وسلم: **الذاكر جليس الله.** لكان كافيا وحظا شافيا.

وعليه فمن أراد أن يذكره الله فيما عنده فعليه بذكر الله، ومن أراد أن يشكره الله بين ملائكته ويباهي به بين خلقه فعليه بشكره، كيفما تكن ايها العبد يكن. يقول الحق عز وجل:

كن لي يا عبدي كما اريد، اكن لك كما تريد. أطعني اجعلك تقول للشيء كن، فيكون.

ولنستطرد بعض الأحاديث الواردة في فضل الذكر ترغيبا للذاكرين.

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: آخر كلام فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قلت له: أي الاعمال احب الى الله؟ قال: **ان تموت ولسانك رطب بذكر الله.** وقال عليه الصلاة والسلام: **ان لكل شيء صقالة وصقالة القلوب ذكر الله، وما من شيء انجى من عذاب القبر من ذكر الله. قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، الا ان يضرب بسيفه حتى ينقطع.** وفي روايـة: **ولو ان يضرب بسيفـه حتى ينقطع.** وفي رواية: **الا اخبركم بخير اعمالكم وازكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب**

والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ذكر الله. وقال أيضا: **من عجز منكم عن الليل أن يكابده وبخل بالمال أن ينفقه وجبن عن العدو أن يجاهده فليكثر ذكر الله، فإن العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله.** وقال عليه الصلاة والسلام: **أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون.** وقال أيضا: **أذكروا الله ذكرا حتى يقول المنافقون إنكم مراؤون.** وكان عليه الصلاة والسلام يمدح المفردين فقال له رجل: **وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرا.** وفي رواية: **المفردون هم المهتزون بذكر الله تعالى، يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافا.** فيؤخذ من هذا الحديث الشريف جواز الإهتزاز للمولعين به من أهل هذه الطائفة ويشهد لهم بذلك ما يروى عنه عليه الصلاة والسلام في رواية: **المفردون هم الذين يهتزون بذكر الله، يضع الذكر عنهم أوزارهم وخطاياهم، فيأتون يوم القيامة خفافا.** وقد قيل أن المهتزين هم المولعون بذكر الله المداومون عليه، لا يبالون بما قيل فيهم ولا ما فعل بهم، لتمكن الذكر من قلوبهم حتى كادوا أن يبدوا به بغير إختيار، وللشبلي رضي الله عنه في هذا المعنى: كما تقدم

ذكرتك لا أني نسيتك لمحة ☆ وأيسر ما في الذكر ذكر اللسان
وكدت بلا وجد أموت من الهوى ☆ وهام على القلب بالخفقان
فلما رآني الوجد أنك حاضري ☆ شهدتك موجودا بكل مكان
فخاطبت موجدا بغير تكلم ☆ ولاحظت معلوما بكل عيان

وقد تقدم: من لم يهتز بذكر الحبيب فليس بحبيب وقال عليه الصلاة والسلام: **من أحب شيئا اكثر من ذكره.** فكان تولعهم بالذكر دليلا على محبتهم للمذكور.

وحاصل الأمر أن الذاكرين ذهبوا بكل خير، لما قيل أن أبا بكر رضي الله عنه قال يوما لعمر: يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكل خير. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أجل يا أبا بكر.** وكان عليه الصلاة والسلام يقول: **لو أن رجلا في حجره دراهم يقسمها وآخر يذكر الله لكان ذاكر الله أفضل.** وكانت أم سليم رضي الله عنها تقول: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أكثري من ذكر الله فإنك لا تأتين الله بشيء أحب إليه من كثرة ذكره.**

فتحصل من هذا أن ذكر الله أفضل كل شيء. **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر.** وأنشد في ذلك:

إني إذا ما ذكرت ربي ☆ أهتز شوقا إلى لقاه
طابت حياتي وضاء قلبي ☆ بذكر ربي جل ثناه
ما ذاق طعم الغرام إلا ☆ من عرف الوصل او دراه
يا فوز قوم بالله فازوا ☆ فلم يروا في الورى سواه

وفضائل الذاكرين لا تنحصر، وكفى بما منحهم الله عز وجل حيث أعد لهم مغفرة وأجرا عظيما.

ثم قال رضي الله عنه:

«الذِّكْرُ شُهُودُ المَذْكُورِ وَدَوَامُ الحُضُورِ»

الذكر في اصطلاح المتمكنين، هو شهود المذكور ودوام الحضور، لأن الذاكر غافل في ذكره عن المذكور، ولو حصل المذكور لغفل عن ذكره له، لما في بعض الأحاديث القدسية: **من ذكر لم يشاهد ومن شاهد لم يذكر.** وقد قيل في هذا المعنى:

ما إن ذكرتك إلا وهمّ يقلقني ☆ روحي وقلبي عند ذكراك

حتى كان رقيب منك يهتف بي ☆ إياك والتذكار ويحك إياك

أما ترى الحق قد لاحت شواهده ☆ وواصل الكل معناه من معناك

وقيل للشبلي رضي الله عنه متى تستريح؟ قال: إذا لم أر لله ذاكرا. قلتُ: إذا رأيت العارف ذاكرا فاعلم أنه غافل. وهذا من باب حسنة الأبرار سيئات المقربين. وقد لوح بعضهم لهذا المعنى:

ألا بذكر الله تزداد الذنوب ☆ وتنطمس البصائر والقلوب

وذكر الله أفضل كل شيء ☆ وشمس الذات ما لها غروب

قال الخليل فيما أخبر عنه عز وجل: **إني لا أحب الأفلين.**

الذكر يستعمل مع الغفلة لا مع الحضور، ومع النسيان لا مع الشعور. قال عز من قائل: **واذكر ربك إذا نسيت.** وأما إذا لم تنس فلا ذكر. الحق إذا ظهر بشهوده على عبده أنساه الذكر وما في معناه، ولم يبق إلا الشهود المحض، ولهذا قيل: لا يذكر الله من يشاهده ولا يشاهده من لم يذكره.

وعليه فيجب على المريد أن يذكر الله بقدر وسعه، حتى يأخذه عن الذكر بشهوده ويفنيه عن ذاته في وجوده، ويغيب الذاكر عن الذكر في شهود المذكور، فيصير باطنه ظهورا وغيبته حضورا، ويتولاه بلطفه ويأخذه بعنايته وينوب عنه في حركاته وسكناته، ويتولاه بنفسه وهو يتولى الصالحين.

ثم قال رضي الله عنه:

«الذِّكْرُ شُهودُ الحَقِيقَةِ وَخُمودُ الخَلِيقَةِ»

أي الذكر يفضي وينتهي بصاحبه إلى شهود الحقيقة وخمود الخليقة، وهو الفناء الكلي والإضمحلال البين، فتتعطل عنده الأسباب ويتمزق الحجاب وتكل الألسن، **وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلا همسا.**

يزول الأين ويتلاشى البين، وتحذف الضمائر وتفشى فيه السرائر، ولم يدر الذاكر أنه هو المذكور أم هو الذاكر. ولسلطان العاشقين في هذا المعنى:

فقد رفعت تاء المخاطب بيننا ☆ وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي
فإن لم يُجَوِّز رُؤية اثنينِ واحدًا ☆ حِجَاكَ، وَلَمْ يُثْبِتْ لِبُعْدِ تَثَبُّتِ

فمن لم يصل إلى هذه الرتبة لم يبلغ منتهى الذكر على الحقيقة ،وهذا الذكر هو المسمى عندهم سر السر، لأن الذاكر يصير في هذا الحال حقا بلا خلق، أو تقول جمعا بلا فرق، أو رتقا بلا فتق، وهذا هو الذكر المعتبر عند القوم.

وأما الذكر باللسان فهو عندهم من جملة الأعمال بالجوارح، إلا إذا انتهى بصاحبه إلى هذا الحال، وإلا فهو من جملة النوافل.

ثم قال رضي الله عنه:

«الذِّكْرُ مَا غَيَّبَكَ عَنْكَ بِوُجُودِهِ،وَأَخَذَكَ مِنْكَ بِشُهُودِهِ»

قد تقدم لك أن الذكر عند العارفين لا يسمونه ذكرا حتى يغيبك عنك أيها المريد بوجوده ويأخذك منك بشهوده، ولهذا يقولون: حتى يغيب الذاكر في المذكور، وليس المراد بالإسم إلا الغيبة في مسماه.

قال الشيخ أبو محمد عبد الرحيم المغربي رضي الله عنه: الذكر هو اضمحلال الذاكر برؤية المذكور، حتى يبقى مَحْقاً في عين المحو، وسكرا في سر الصحو. قال تعالى: **واذكر ربك إذا نسيت.** معناه إذا نسيت أنك ذاكر فنسيانك ذكر، وغيبتك عن النسيان، شهود المذكور، فهو المعبر عنه بذكر الذاكر.

وحاصل الأمر، أن الذكر هو مغنطيس الذاكر، فلهذا يأخذه بوجوده كما يأخذ المغنطيس معدن الحديد، فكذلك الذكر يأخذ الذاكر من نفسه ويفصله عن حسه وأبناء جنسه، ويوقفه بين يدي ربه، فحينئذ يشتغل بالمذكور عن وجود الذكر، ولهذا قلنا: إذا رأيت العارف ذاكرا فاعلم أنه غافل، ولو كان ذاكرا لكان السكوت أولى به، وهذا هو الذكر المعتبر عند العارفين، المخبر عنه في قوله تعالى: **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه.**

إلى أن يصل به إلى منتهاه. **وان إلى ربك المنتهى.** فقول صاحبه حينئذ كمن قال:

سروري أن أراك وأن تراني ☆ وأن يـدنو مكانـك مـن مكاني
وعيشي في لقـــاك كل يـــوم ☆ وحسبي ذالـك مـن كل الأمـاني
لئن وَاصلْتني وأردت قــــــربي ☆ وحقك مـا أبـالي بمن جـفـاني

ثم قال رضي الله عنه:

«التَّعْظِيمُ: امْتِلاَءُ القَلْبِ بِإِجْلاَلِ الرَّبِ»

التعظيم هو وارد من حضرة العظمة، يرد على القلب فيأخذ المريد من حاله إلى حال يتعذر وصفه، لأن العظمة إذا ظهرت على العبد تسلبه عن حاله وتذهله عن نعته، كما أخبر من وقعت به:

ذهلـت بهـا عني بحيـث ظننتني ☆ سواي ولم أقصد سـواء مظنتي
وَدَلَّهَنِي فيهـا ذهـولي فلم أفـق ☆ عليَّ ولم أقْـــفُ إلتماسي بظنتي
فأصبحت فيها والها لاهيـا بهـا ☆ ومـن ولهت شغلا بها عنـه الهت
وعن شغلي عني شغلت فلو بها ☆ قضيت ردى ماكنت أدري بنقلتي
ومن مُلَحِ الوجد المدله في الهوى ☆ المولـه عقلي سبي سلـب كغفلتي
أسائلهـا عني إذا مـا لقيتهـا ☆ ومن حيث اهدت لي هداي اضلت
وأطلبهـا مني وعنـدي لم تزل ☆ عجبت لها بي كيف عني استجنت
ومـا زلت في نفسي بهـا مترددا ☆ لنشوة حسّي والمحاسن خمرتي

وسئل الشيخ جابر رضى الله عنه عن مثل هذا الحال فقال: العارف يشاهد جلال العظمة وتتغير عليه الاحوال والمقامات فتداخله الحيرة والدهشة ثم تخرجه الحيرة للبهتة فتراه شاخصا بالحق الى الحق، فتارة يشهد الجلال وتارة يطالع الكمال، وتارة يرى البها، وتارة تلوح عليه الكبرياء والعزة، وتارة يبدوله الجبروت والعظمة، فهذا يبسطه وهذا يقبضه، وهذا يطويه وهذا ينشره. وهذا يفقده وهذا يوجده وهذا يبديه وهذا يعيده، وهذا يفنيه وهذا يبقيه، وهذا زائل عن نعوت البشرية،قائم بصفة الربوبية،لا يحس بالأغيار،ولا يشاهد غير عظمة الجبار. ثم قال: اذا قدحت نار التعظيم مع نور الهيبة في زند السر تولد منهما شعاع المشاهدة، فمن شهد الحق عز وجل في سره،سقط الكون من قلبه، فهذا من اخذته عظمة الربوبية فهل يجد لنفسه بقية؟كلا،انما يجد الكل متلاشيا وليس للغير ادنى فسحة يظهر فيها او يستقر عليها، فاذا تمكن العارف من هذه المكاشفة فقد تمكن من معرفة الله **وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء،** وكل ما برز على لسان العارف مما لا يعقل،الا وهو ماخوذ من امتلاء القلب بالتعظيم،وكيف لا يبرز عليه ما هو مباين لعادته وقد تغيرت عليه الاحوال،واتسع لديه المجال،وزال الذى زال،وبقى من لا زال،فلا محالة يقول كمن قال:

كنت نرى الديار ☆ تحوى بعض الاثار
حارت فيها الافكار ☆ اين هي اينا
حتى بدت جهار ☆ فيوضات الاسرار

نقضـــت الجـــدار ☆ هـــو نفـــس المنى
فاض البحر الزخار ☆ على الجنـــة والنـــار
اين الفلـــك الـــدوار ☆ اين هـــو اينـــا
غَيَّب عنى الاقطـار ☆ والبيـــدا والقفـــار
الحـــدود والاصـــوار ☆ زال كل البنـــــا
تركنـــا دون ستـــار ☆ لا رداء لا ازار
لـــولا هـــو الستـــار ☆ بـــــه تحصنـــــا
غابت عنى الاخبار ☆ لم نـــدر مـــاذا صـــار
همت في ذا الزخـــار ☆ لا اينـــا لا انـــا
سوى الفرد الصوار ☆ مطـــور الاطـــوار
الامـــواج والانهـــار ☆ والبحـــر يحوينـــا

وعندما تطرق العظمة قلب العارف وتفعل به ما فعلت بغيره يبرز بحقائق على لسانه فتقع في سمع الغافلين الحائرين في صفة التكوين الذين لم يرفعوا ابصارهم لله احسن الخالقين، فيقولون: **ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة.** يقول العارف:**«قل آمنوا به أو لا تؤمنوا» «إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين»**

فطب بالهوى نفسا فقد سدت أنفس ☆ العبـــاد من العُبَّـــاد في كل أمـــة
وفز بالعلى والفخر على ناسك علا ☆ بظـــاهر أعمـــال ونفس تزكـــت
وجز مثقلا لو خف طف مـــوكلا ☆ بمنقـــول أحكام ومعقـــول حكمـــة
وحز بـــالولا ميراث أرفع عـــارف ☆ غدا همه إيثـــار تـــأثير همـــة
وته ساحبا بالسحب أذيال عاشق ☆ بوصـــل على أعلى المجرة جـــرت

وجل في فنون الإتحـاد ولا تحـد ☆ إلى فئة في غَيْـرِهِ العمـر أفنت
فواحـده الجم الغفيـر ومـن غَـدَاهُ ☆ شرذمـة حجت بـأبلغ حجـة
فمتَّ بمعناه وعش فيه أو فمـت ☆ مُعنَّـاهُ واتبع أمـة فيـه أمَّت
فأنت بهـذا المجد أجدر من أحي ☆ اجتهاد مجد عن رجاء وخيفة

الفصـــل السابـــع
في الخشية والمراقبة

قال رضي الله عنه:

«الْحَقُّ سُبْحَانَهُ مُطَّلِعٌ عَلَى السَّرَائِرِ وَالظَّوَاهِرِ فِي كُلِّ نَفَسٍ وَحَالٍ»

الحق تبارك وتعالى مطلع على البواطن والظواهر بما تقتضيه حقيقة الذات من حيث البطون والظهور، فكان اطلاعه على السرائر من حيث البطون،وعلى الظواهر من حيث الظهور، ولا يمكن الخفا لشيء من حيث الإحاطة والشمول، فعلمه بالأشياء دون سبق خفا،وهو حسبي وكفى، وكيف يعزب عليه شيء من الأشياء جليلها وحقيرها وهو أقرب إليها من نفسها، فهو مع كل لطيف ألطف من لطافته،حتى صار لا تدركه الأبصار، ومع كل كثيف أكثف من كثافته، فمن حيث الظهور لا يمكنه استتار. وللششترى رحمة الله عليه:

ظهـرت فلا تخفـى على أحـد ☆ وغبـت فلم تظهـر لكل أحـد

أنت هـو الواحـد بلا أحـد ☆ واحـد بلا ثـانى تحقيـق جبر

الحق تبارك وتعالى قريب لكل شيء ،وأقرب من كل شيء ومطلع على كل شيء،أكثر من مطالعة ذلك الشيء على نفسه لحيازته مراتب الوجود من كل دقيق وعظيم، جلت عظمته حتى تسترت بالظهور:

يـا مـن تعظم حتى رق معنـاه ☆ ولا يرد أرض الكبريـاء إلا هـو

وباستحضار المريد ما أخبره به المصنف من مطالعة الحق تبارك وتعالى له،تنبت في القلب شجرة المراقبة،ويرجع العبد على نفسه بالمحاسبة،في كل نفس من الأنفاس، لما يعطى له الكشف من مطالعة الحق عليه في كل وقت وحال، فليحذر المريد لتكون الأنفاس له لا عليه، فكل من الأوقات والأنفاس ودائع، ولا بد من يوم ترد فيه الودائع،وإذا علمت أن الودائع مردودة فحافظ أن تردها على ما أتتك عليه غير مدنسة بأنواع المخالفة، فهي عليك صحف وألواح، تنقش لك فيها أفعالك الظاهرة والباطنة، والحق مطلع على رتبتك في الوجود،من حيث هي ظاهرا وباطنا، فاحذره وراقبه، وبالمراقبة تتحسن العلائق بينك وبين الحضرة الإلهية،لإيثارك له في غالب الأعمال على غيره، وسبب ذلك استشعارك بمطالعته عليك، بخلاف ما إذا كنت غافلا عليه، ولهذا قال رضي الله عنه: فأيما قلب يراه مؤْثِرًا له حفظه من طواري المحن ومضلات الفتن. فهذه فائدة المراقبة، حتى إذا وجد الحق تبارك وتعالى قلب المؤمن مؤثرا له على غيره في أغلب المعاملة حالا ومقالا يحفظه مما يؤذيه، وهذا الحال يشعر به المريد من نفسه لأنه سر بين العبد وربه، ويختلف باختلاف السائرين،فإيثار قلب العارف بالله على غيره ليس هو كإيثار قلب المحجوب مثلا، فكل إيثار بحسب ما يناسبه المقام، فكان إيثار المبتدي للحق عز وجل على غيره يكون مقصورا في حفظ الجوارح، أو نقول في أحكام الشرع، فهو يدور مع أمر الله

حيث دار، والمعين له في ذلك مراقبته للحق لا غير، قاطع النظر عن الخلق وهذه درجة شريفة، ثم لم يكن هناك ما أشرف منها وهي حالة العارفين مع الله عز وجل، فإنه تبارك وتعالى غيور على قلب العارف أن يكون لغيره فيه مجال، فهو طاهر ومتطهر من أن يوجد فيه لغير الله عز وجل أدنى ذكر أو أدنى فكر، ومن غيرة الله عليه أنه لا يرضاه أن يلتفت لغيره أو يستوي مخلوق عليه، فغيرته عليه أشد من غيرته على العرش، **وأن** العرش لا يستوي عليه مخلوق، والحق عز وجل يحمل القلوب طاقتها، **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.** فأيما قلب يراه محافظا على عهده مؤثرا له على غيره حفظه من طواري المحن، ومضلات الفتن، وكيف لا يحفظه وهو مسكنه. قيل في هذا المعنى:

لا تعذبن قلبا أنت ساكنه ☆ ولا تحرقن جسما أنت فيه

فطواري المحن لا تمر على قلب ساكنه الرب، فرب البيت يحميه.

يا ساكن الحشا ☆ والجسم والضلوع
فني قلبي فشا ☆ بمعاني الجموع

اللهم احفظ قلوبنا ولا تواخذنا بما نسينا أو أخطأنا.

ثم اعلم أن مضلات قلوب العارفين هي رؤية الغير، وكونها ملازمة للمحن لا محالة، والعذاب مقرون بوجود الحجاب، والعارف يرضى بكل عذاب، اللهم إلا بالقطيعة. قال بعضهم:

عذب بما شئت غير البعد عنك تجد ☆ أوفى محب بما يرضيك مبتهج

ومضلات قلب المحجوب انقياده إلى النفس الأمارة، واستيلاؤها على الجوارح مقرون بالمحن الظاهرة والباطنة، وسبب انخراط المريد في سلكها عدم مراقبته للحق وإيثاره له في الأمر والنهي عن هوى نفسه، فلهذا يهوي في شركتها من حيث لا يشعر، وكلما حافظ المريد على مقام المراقبة إلا ويزداد قربه من الله حتى يرتفع حجابه، لأن نهاية المراقبة هي المشاهدة، وتكون أول درجات مقام الإحسان،المشار إليه في قوله عليه الصلاة والسلام: **اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.** أي لازم حضور رؤيته لك واستحضره معك، **وهو معكم أينما كنتم.** ثم اعمل ما شئت أيها المريد، **فإن الله بما تعملون بصير.**

ثم قال رضي الله عنه:

«شَاهِدْ مُشَاهَدَتَهُ لَكَ وَلاَ تُشَاهِدْهُ بِمُشَاهَدَتِكَ لَهُ»

إذا شاهدته بمشاهدته لك راقبته في كل الأوقات،وعلى كل الحالات، لأن مشاهدته لك ليست منفصلة، أو في وقت دون وقت، إنما هي كشف كلي على وجه الإحاطة والشمول لا تعتريه غفلة ولا ذهول، فإن شاهدته بمشاهدته لك على هذا الوجه فلا يمكنك مخالفته ولا الإشتغال بغيره، بل تكون مراقبا لسمعه وبصره وعلمه وإدراكه، المحيطين بظاهرك،الخارقين لما في باطنك،الكاشفين عليك أكثر من كشفك عن نفسك، فإذا كنت على هذه الحالة فهل يمكنك التقصير؟ وإذا صورت هذا التصوير وعبرت هذا التعبير

فهل تجد بينك وبينه ساترا؟ حاشا وكلا، إنما هو السميع البصير. شاهده أخي بمشاهدته لك ولا تشاهده بمشاهدتك له فأنت من نعتك الغفلة والتقصير، فقد تحضر معه في وقت وتغيب عنه في أوقات، لما يعتريك من الهفوات ويطرأ عليك من الغفلات، وإذا كنت عارفا واصلا فلك أن تشاهده بمشاهدتك له ما دمت حاضرا، وإذا رجعت لحسك فشاهده بمشاهدته لك فتكون على بصيرة وحفظ من كل الوجوه، ولهذا يقال كن مع الله أينما هو معك. **وهو معكم أينما كنتم.**

ثم قال رضي الله عنه:

«الْخَوْفُ إِذَا سَكَنَ الْقَلْبَ أَوْرَثَهُ الْمُرَاقَبَةَ»

لما قيل أن الخوف سوط الله لعبده فإذا سكن القلب أورثه المراقبة فمنشأ المراقبة وجود الخوف، فمن سكن قلبه خوف الله عز وجل لن يبعد عن مقام المراقبة فهو بصددها، ومهما اشتد خوف المؤمن دل على وجود قربه من الله، والهيبة لا تستولي على القلب إلا مع وجود القرب، وكلما ازداد العبد من ربه قربا إلا وازداد منه خشية، وهكذا إلى أن يمتحق في عظمته.

ألا فـاتق الإلـه صونـا لقلبك ☆ وحافظ على نور الإيمان أن يرحل
فمن عصى رب العرش باء بسخطه ☆ ومـن هرب لحـق كان مبجـلا
لأن النور إذا ارتحل من القلب يتعذر في الغالب رجوعه.

وحاصل الأمر، ان الخوف هو سوط الله في أرضه، يسوق إلى الطاعة ويعوق عن المعصية، إذ لولا خشية الله لا طاعة ولا مراقبة، فهو السائق لقلوب المؤمنين. **إنما يخشى الله من عباده العلماء.**

ثم اعلم أن العارف قد ينوب عنه الحياء من الله عن الخوف فإذا كان من وراء رواق الحكمة فيكون لباسه الخوف، لما قيل: ان العارف لباسه الخوف وإذا كان في الحضور يمنعه الحياء من الله، وهذا حال شريف وهو معنى العصمة في حق المرسلين، والحفظ في حق العارفين والله اعلم.

ثم قال رضي الله عنه:

«مَنْ لَمْ يَجِدْ فِي قَلْبِهِ زَاجِراً فَهُوَ خَرَابٌ»

قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن الحق: **لا يسعني أرضي ولا سمائي ويسعني قلب عبدي المؤمن.** فلهذا قال المصنف من لم يجد في قلبه زاجرا الخ.. أي زاجرا يزجره عن الغير ويأمره بالخير، لا يصلح للمجالسة ولا للإقتراب، قلب المؤمن سلطانه، يأمره وينهاه، لا يفعل فعلا إلا بإذنه ولا ينهى عن أمر إلا بنهيه، حتى يصير العارف يستفتي قلبه، ولهذا قيل: [فاستفت قلبك وإن افتاك المفتون]، لطهارته واحتوائه على سر الله.

فإن كان أخي قلبك مسكونا فحافظ على ساكنه وقل كمن قال:

يا ساكن القلب لا تنظر إلى سكني ☆ واربح فؤادك واحذر فتنة الدعج

هذا إن كان مسكونا، وأما إذا كان القلب خرابا فلا جرم يستولي عليه من لا يقوم بحقه ويزيده خرابا على خرابه، ويصرفه من طريق الرشاد والهداية إلى سبيل الخسران، وتتخرب الجوارح بخرابه، لأنه كرسي الأمير ومركز الملك، تدور عليه دائرة العمل، فإذا فسد المركز فسد الكل. قال عليه الصلاة والسلام: **إن في بنى آدم مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.**

فمن أراد القرب من ربه فليشتغل بتصفية قلبه، لأنه محل إقامة الله من عبده، لعله ينظر إليه بنظرة فيمتليء تعظيما واجلالا. اللهم اسكن قلوبنا ولا تؤاخذنا بالساكن.

ثم قال رضي الله عنه:

«الْحِمْيَةُ فِي الْأَبْدَانِ تَرْكُ الْمُخَالَفَةِ بِالْجَوَارِحِ»

لما كان الإنسان مطلوبا أن يحمي نفسه ويقيها من المهالك لقوله عز وجل: **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا.** أخبر المصنف أن الحمية في الأبدان هي ترك المخالفة بالجوارح، وذلك أن يحفظ كواسبه الظاهرة والباطنة من الوقوع في المحرم أو المكروه، **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا.**

فهذا هو الإسلام في عرف الشرع، وهذا هو الإستسلام إذا كان موافقا في الباطن، لقول ابن عطاء الله رضي الله عنه: متى جعلك في الظاهر ممتثلا لأمره ورزقك في الباطن الإستسلام لقهره فقد أعظم عليك المنة.

ثم قال رضي الله عنه:

«وَالْحِمْيَةُ فِي الْقُلُوبِ تَرْكُ الرُّكُونِ إِلَى الْأَغْيَارِ»

والمراد به هو الأثر فإن القلب إذا ركن إليه واحتجب عن الموثر بشهود الأثر ترتحل منه الأنوار، لقول صاحب الحكم[كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته]. لأن القلب شفاف ينطبع فيه كل ما مر عليه، والبصيرة سريعة التغير ولو بالمجاورة، ولهذا ينبغي لصاحب القلب أن لا يركن لشيء كيلا ينطبع في مرآته فيتعذر محوه في الغالب، وأن يحافظ على قلبه من الطوارق لئلا يعوقه عائق، ولنا في ذلك:

ياسائق القلوب حافظ على سيرهم ☆ وان ركنوا في السير بالله لا تركنا

ثم قال رضي الله عنه:

«وَالْحِمْيَةُ فِي النُّفُوسِ تَرْكُ الدَّعَاوِى»

النفس من صفتها ونعتها الدعوى وحيازة الملك، فهذه جبليتها تتنقل معها حيثما انتقلت، مع أنها مطلوبة بترك الدعاوي في كل مقام:

الدعوى من ريح النفس بادر لتركها ☆ فمن حمية النفس ترك الدعاوي

ثم اعلم أن الحمية كلها من الله، إلا أن المريد يتسبب في ذلك لقول الشيخ عبد القادر الكيلاني رضي الله عنه لمريد له: بك لا يجيء شيء ولا بد منك.

ثم قال رضي الله عنه:

«حِلْيَةُ الْعَارِفِ الْخَشْيَةُ وَالْهَيْبَةُ»

الخوف لباس العارفين وزينتهم، وحصن المريدين ونجاتهم. **إنما يخشى الله من عباده العلماء.** العارفون بالله الخشية تفرقهم والهيبة تجمعهم، فهم بين ذلك يتقلبون وفي رضاه يتنعمون، كلما ازدادوا قربا ازدادوا هيبة، وكيف لا وقد قال عليه الصلاة والسلام: **إني لأقربكم من الله وأشدكم منه خشية.** قال بعض العارفين في وصيته لسائل قال له أوصني، كن كرجل احتوته السباع فهو خائف مذعور يخاف أن يسهو فتفترسه أو يلهو فتنهشه، فليله ليل مخافة إذا امن فيه المغترون، ونهاره نهار حزن إذا فرح فيه

البطالون، ثم قال للطالب عند الإستزادة:[إن الظمآن يقنع بيسير الماء، والعارف أشد خشية من هذا الظمآن لأنه بين يدي إله شديد البطش والقوة عظيم القدر والسطوة، فكيف لا يخشاه من كان بين يديه] الهيبة لا تخلو من قلوب العارفين، فكلما ازدادوا بسطا الا وازدادوا قبضا، وكلما اشتد جمالهم إلا واشتد جلالهم، حالتان لازمتان، فكلما أمنهم إلا واشتد خوفهم، فهم يخشون شدة القرب كما كانوا يخشون شدة البعد، فإذا رأيت أقوال العارفين تجد كأنهم رفعت عنهم التكاليف، وإذا رأيت أفعالهم تجدهم أشد الناس محافظة على الوظائف.

كان أستاذ هذه الطائفة الشيخ الجنيد رضي الله عنه ملازما للوظائف والنوافل، وقيل أنه عند الموت كان يتنفل ولما قرب الوقت صار لا يقدر أن يغير جلسته للسجود، فقيل له في ذلك فقال: ومن أحوج مني في هذا الوقت الذي تطوى فيه صحيفتي. وكان سيدنا علي بن زين العابدين رضي الله عنه إذا قام إلى الوضوء يصفر لونه وتعتريه هيبة فقيل له في ذلك فقال: ألا تدرون من الذى ساقوم إليه؟ قيل ان أبا بكر رضي الله عنه كان إذا تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحوال الآخرة يشم من جوفه رائحة الكبَد المشوي. وأنت تعلم يا أخي قربه من الله وما ورد فيه من الأخبار وأنه من المبشرين بالجنة وكل ذلك لم يزده إلا خشية من الله وهيبة. وعن عطاء رحمة الله عليه قال: كان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء كل ليلة ويتذاكرون عن الموت والقيامة والآخرة فلا يزالون يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وعن ابن حبان رحمة الله عليه قال: صليت الصبح خلف عمر بن عبد العزيز فقرأ **وقفوهم أنهم مسؤولون** فجعل يكررها ولا يستطيع أن يتجاوزها من البكاء.

وقال مجاهد [بكى داود عليه السلام أربعين يوما وهو ساجد لا يرفع رأسه حياء من الله عز وجل حتى نبت من دموعه المرعى وحتى غطى رأسه فنودى: يا داود أجائع أنت فتطعم أم ظمآن فتسقى أم عار فتكسى أم مظلوم فننتصر لك، فنحب نحبة هاج منها ما ثم من الزرع فأنزل الله إليه التوبة والمغفرة. فقال: يا رب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لغيره إلا رآها مقابلة له وكان يأتى بالقدح وثلثيه ماء فإذا تناوله رأى خطيئته فلا يضعه حتى يفيض من دموعه. فقال: يا رب أما ترحم بكائي! فأوحى الله تعالى إليه: يا داود نسيت خطيئتك وذكرت بكاءك] الخ.

وكل ما تضمنه خوف الخائفين فهو بعض من خشيته عليه الصلاة والسلام، فكان أعظمهم خشية كما أنه اعظمهم قربة ومع قربه فقد قال عليه الصلاة والسلام: **شيبتني هود واخواتها.** وعندما نزل قوله تعالى: **فاستقم كما أمرت.** فاستفاد من ذلك عليه الصلاة والسلام أن الإستقامة تكون بقدر المعرفة. ثم أن أخوات هود أي السور التى ذكرت فيها أهوال القيامة (كالمرسلات) و (عم يتساءلون) و(إذا الشمس كورت) وغيرها.

وحاصل الأمر، ان الخشية هي لباس العارفين، ومن لم تكن الخشية والهيبة لباسه، فهو عريان مطموس الجنان، يخشى عليه

من الخذلان، **إذا زلزلت الأرض زلزالها.**

ثم اعلم أن العارفين لا تنافي خشيتهم ما هم عليه من أنواع القربات، إنما يخشون الله من وجهة ويتنعمون من وجوه لما قيل في هذا المعنى:

تقـــرب مني حق بسطتـــه ☆ وخفتـــه كـــأني بعيـــد

اللهم ارزقنا الخشية والإستقامة وأقمنا فيما ترضاه منا، وخوفنا بقدر ما تؤمنا، إنك أهل للتقوى وأهل للمغفرة.

ثم قال رضي الله عنه:

«مَنْ عَرَفَ الله اسْتَعَاذَ مِنْهُ فِي الْيَقْظَةِ وَالْمَنَامِ»

معرفة الله على نعت المشاهدة غاية لا مزيد عليها، فمن رفع عنه الحجاب حتى تحقق بحقيقة الوحدانية وعرف الله حق معرفته لم يجد سواه حتى يستعيذ منه أو يستعاذ به، فتكون الإستعاذة بالجمال من حيث الجلال، وإن تنوعت المظاهر فالمتجلي واحد، ومن هنا قوله عليه الصلاة والسلام حيث قال: **أعوذ برضاك من سخطك.** وكان الحديث مسلسل إلى أن قال: **وأعوذ بك منك.** والكلام هنا غميض يصعب على من لم يذق من فن القوم، وليس المراد منا فهم الحديث من حيث الظاهر، بل هنالك معنى آخر يؤخذ بالكشف، حتى قيل أن العارف لا يجوز له أن يستعيذ إلا من الله، إذ لو كانت الإستعاذة من الشيطان واضرابه فقط، فمن يضر العارف إذا كان في حضرة القدس، وممن

يستعيذ وممن يخاف، فعلى هذا يكون مأمونا والحالة لا. قال الله تبارك وتعالى: **فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.** فلم تبق للعارف استعاذة إلا من الله وبه لأن بطشه شديد، ولما كانت حكمته تقتضي التفريق وجرت بالمطيع والفاسق، وتم المقدور ورسمت السطور، قام الشيطان وأخذ راية الضلال كما أخذت الأنبياء راية الإمتثال، وصار كل يطلب ما تقتضيه حقيقته ساعيا فيما خلق لأجله قائلا: **كل ميسر لما خلق له.**

فالحق تبارك وتعالى كان هو المضل قبل وجود الشيطان، كما هو الهادي قبل وجود الهداة، وقد روي أن الشيطان تلاقى مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: يا محمد أنت إسمك الهادي وليس لك من الهداية شيء، وأنا إسمي المضل وليس لي من الضلال شيء. فالله هو الهادي المضل، فلا مضل ولا هادي على الحقيقة إلا الله.

وقد وقع لي مثل الإجتماع مع الشيطان في عالم الخيال فأخذت في محاورته قائلا له: ما هذا الكبر؟ ونعني به عدم سجوده لآدم عليه السلام، فقال لي: فيكم من المتكبرين من هو أكثر مني. فقلت: وكيف ذلك؟ فقال لي: أنا لم أتكبر على طاعة الله وقد كنت راكعا ساجدا لله ولا زلت إن أرادني لذلك، ولما أمرني بالسجود للمخلوق أبيت من حيث أنه مخلوق، وأنتم أمركم بالسجود لذاته قال تعالى: **يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون.** فأبى أكثركم أن يسجد ويعني بذلك تاركي الصلاة، فأين كبري من كبر هؤلاء؟

الإسم لا محالة فتكون الإستعاذة منه مطلوبة حتى إذا اتقيته فإنك اتقيت الله من حيث اسمه المضل، ولهذا حذرنا الله تبارك وتعالى منه في عدة آيات لما تقتضيه حقيقته وحكمة الله جرت وقدرته أثرت في المظاهر، فكل مظهر إلا وللحق تبارك وتعالى فيه يد، إما بالشقاوة وإما بالسعادة كما قيل:

ولولا حجاب الكون قلت وإنما ☆ قيامي بأحكام المظاهر مسكتي
فلا عبث والخلق لم يخلقوا سدى ☆ وإن لم تكن أفعالهم بالسديدة
على سمة الأسماء تجري أمورهم ☆ وحكمةوصف الذات للحكمأجرت
يصرفهم في القبضتين ولا ولا ☆ فقبضة تنعيم وقبضة شقوة

ثم اعلم أن مسكن الشيطان بين ملك وملكوت، فتكون له يد في الجانبين، وأما بين الملكوت والجبروت لا يد له لفقد الطبائع والنسبة الإنسانية، لكن هنالك ما هو أشد بأسا منه وهو مكر الله، المنوط باسمه المضل، القائم بما يوجب، ولهذا حذر الإنسان من مكر الله في كل مقام، قال عز من قائل: **فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.** حتى لا يأمن الإنسان على أي حالة كان.

وحاصل الأمر، كل من عرف الله لا يستعيذ مما سواه، لعدم وجوده في نظره يقظة ومناما، لقول المصنف: من عرف الله. الخ... فهو يخشاه في منامه كخشيته له في اليقظة، لأن منام العارف ليس بمتروك، أي مجرد راحة، بل هو تكليف وأمر ونهي، كناية عن حالة يخرج بها العارف من حسه ويتجرد لما يأتيه من ربه إما أمرا وإما نهيا وإما غير ذلك، فنوم العارف ليس بعبث، فهو مع الله يقظة ومناما، يأخذ من اليقظة إلى النوم ومن النوم

إلى اليقظة، فيكون له ارتباط بين منامه ويقظته، لأن قلب العارف له اقتباس من قلب النبوءة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: **نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا.** وعلى هذا يكون العارف له نوع من التكليف في المنام يقرب من تكليفه في اليقظة، ولو لم يكن كذلك لم تمكن له الإستعاذة في نومه ابتداء وانتهاء، ومن أجل هذا كان نوم العالم أفضل من عبادة الجاهل، أي العالم بنتائج المنام أفضل من العابد الجاهل بذلك، لأن المنام وقت آخذ قطعة من الزمان، ولا يخلو من حكمة، والعارف مطلوب أن لا يضيع حكمة وقته، لما سيأتي من قول المصنف: من ضيع حكمة وقته فهو جاهل ومن غفل عنها فهو عاجز . لأن كلا من المنام واليقظة وقت، فلا ينبغي للعارف أن يضيع منه شيئا، **والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.**

الفصـــل الثامـــن
في التسليم والرضا

قال رضي الله عنه

«اَلْتَّسْلِيمُ إِرْسَالُ اَلْنَّفْس فِي مَيَادِينِ اَلْأَحْكَامِ وَتَرْكُ اَلْشَّفَقَةِ عَلَيْهَا مِنَ اَلْطَّوَارِقِ وَالآلَامِ»

التسليم هو سبيل النجاة للعارفين وهو من الأعمال القلبية، وحقيقته على تعريف المصنف، هو ارسال النفس في ميادين **الأحكام من حيث هي**، بأن يسلم في كل حكم يعلمه من الله وتدخل هذه المعنى في الكلام على حكمة الوقت، لأن الأوقات كلها أحكام جليه وخفية، ويتعين على العارف ارسال النفس في تلك الميادين بدون شفقة عليها من طوارق المحن والبلايا، لأن رب الدابة أولى بمقدمها، والإنسان إذا اشفق على نفسه وتعذر على ما أصابها من سهام القدر فقد أتهم مولاه وادخل بينه وبين ملكه، وذلك مما يقدح في عبوديته، وهو خارج عن التسليم بل فيه منازعة للربوبية لقوله عز وجل: **خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين.** ولهذا تجد العارفين في تيسير يتلذذون بسهام التقدير، يدورون مع الارادة حيث كانت، تابعين لأرياح القضاء حيث دارت، حتى قال صاحب الحكم العطائية: ربما دلَّهم الأدب على ترك الطلب. الخ... وكفى بما وقع لسيدنا إبراهيم عليـــــه السلام من التسليم، لمـــا ألقي بـــالمنجنيق

فتلقاه جبرائيل عليه السلام قائلا: ألك حاجة بي؟ قال له: بك فلا. قال له: ادع الله. قال: علمه بحالي يكفي عن سؤالي. وحكايات القوم في تسليمهم وموافقتهم للقدر مشهورة أكثر من أن تذكر. ومن جملتها ما حكي في كتاب أبى ابراهيم إسحق بن ابراهيم التجيبي القرطبي المالكي رحمه الله في كتاب النصائح له: ان عروة بن الزبير رضي الله عنه امتحن بقرحة في ساقه بلغت به إلى نشر عظم ساقه في الموضع الصحيح منها، فقال له الأطباء: ألا نسقيك مرقدا فلا تحس بما نصنع؟ فقال: لا ولكن شأنكم بها. فنشرت الساق ثم حسموها بالنار فما حرك عضوا ولا انكروا منه حتى مسته النار فما زاد على أن قال: حسبي. وأصيب حينئذ ابنه محمد وكان من أحب ولده إليه فلما رأى القدم بيد بعضهم قال: أما ان الله تعالى يعلم أني لم أمش بها إلى معصية قط. ثم قال: يا غلام غسلها وكفنها وادفنها في مقبرة المسلمين، ثم جعل يقول لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لقد طالما أعطيت. قال بعضهم في هذا المعنى:

ولك الأمر فاقض ما أنت قاض ☆ فعليّ الجمال قد ولاكا
وتلافي إن كان فيه ائتلافي ☆ بك عجل به جعلت فداكا
وبما شئت في هواك اختبرني ☆ فاختياري ما كان فيه رضاكا
فعلى كل حالة أنت مني ☆ بي أولى إذ لم أكن لولاكا

وروي عن بشر بن الحارث الحافي رضي الله عنه أنه قال: رأيت بِعَبَادَانَ رجلا قد قطعه البلاء وقد سالت حدقتاه على خديه، وهو مع ذلك كثير الذكر عظيم الشكر لله تعالى، قال: وإذا

هو صرع من جنة به قال: فوضعت رأسه في حجري وجعلت أسال الله تعالى أن يكشف ما به وأدعو، فأفاق فسمع دعاءي فقال: من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي ويعترض عليه في نعمته ونحى رأسه من حجري. قال بشر: فعاهدت الله تعالى أن لا أعترض على عبد في نعمة أراها عليه من البلاء.

وقد روي في بعض الأخبار أن يونس وجبرائيل عليهما السلام التقيا، فقال يونس لجبرائيل: دلني على أعبد أهل الأرض. فأتى به على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه قال: وإذا هو يقول متعتني بهما حيث شئت وسلبتنيهما حيث شئت وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول. فقال يونس لجبرائيل: إنما سألتك أن تريني صواما قواما. قال: إن هذا كان قبل البلاء هكذا، وقد أمرت أن أسلبه بصره. فأشار إلى عينيه فسالتا، فقال: متعتني بهما حيث شئت وسلبتنيهما حيث شئت وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول. فقال جبرائيل: هلم تدعو وندعو معك أن يرد الله عليك يديك ورجليك وبصرك فتعود إلى العبادة التي كنت فيها فقال: ما أحب ذلك! قال: ولم؟ قال: إذا كانت محبته في هذا، فمحبته أحب إلي من ذلك. قال يونس: يا جبرائيل والله ما رأيت أحدا أعبد من هذا. قال جبرائيل: يا يونس إن هذا طريق ليس يوصل إلى رضاه بشيء أفضل منه.

وعليه ينبغي للمريد أن يدخل ميدان التسليم ويترك الدار لبانيها، إن شاء بناها وإن شاء هدمها.

ثم قال رضي الله عنه:

«أَحْرِصْ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِي مُفَوّضاً مُسْتَسْلِماً لَعَلَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ويَرْحَمُكَ»

النفس من شأنها الإعتراض على أحكام الألوهية، أحرص أيها المريد أن تصبح مفوضا لله مستسلما له في أفعاله وأحكامه، فتنجو من الإعتراض وتريح نفسك من الإختيار، فهي لا تختار إلا ما تهواه ويوافقها في شهواتها وتنكر ما وراء ذلك، فهي كمن قال فيهم عز من قائل: **يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.** فلا تتبعها أيها المريد بل كن كمن قال فيهم عز من قائل: **وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا.** فإن الحبيب حبيب على كل حال، والنفس لا تدري ما تختار، فلو سلمت وألقيت المقاليد للألوهية لعاد عليها ذلك بالراحة، وذاقت حلاوة التسليم والتفويض، فالطبيب أولى بالمريض من نفسه، رب دواء أشد على المريض من الداء، فيكون سببا في حياته. وقد اتفق الحكماء على أن العضو إذا أصابه مرض يطلب قطعه إذا تحققت سلامة الجسد. وإن كان هذا نظر الطبيب العاجز، فكيف بطبيب الأطباء الذي أعلم بمصالحنا من أنفسنا. قال لسان هواتف الحضرة الإلهية مخاطبا لمن له أذن واعية:

برزتك للدنيا ولا لك حيلة ☆ وهبت لك الأرزاق من حيث لا تشا
فسلم لي الأمور واعلم بأنني ☆ أصرف أحكامي وأفعل ما أشا

فاعتراض العبد على مولاه دليل على عدم ثقته به، وهذا أصل شنيع يخشى على صاحبه، فارجع أيها المريد على ما كنت عليه. **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون.** وقيل في تفسير قوله تعالى: **وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة و باطنة.** المراد بالنعم الظاهرة هي العافية، والنعم الباطنة هى البلية، لما يعود على صاحبها من الرضا.

ضاع لبعض الصوفية ولد فقيل له: لو سألت الله أن يرده عليك. فقال: إعتراضي على الله أشد علي من ضياع ولدي.

اللهم ارزقنا التسليم بتوفيق منك واجعل ثقتنا بك حتى لا نعترض عليك في أفعالك **وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه انيب.**

ثم قال رضي الله عنه:

«إِسْتِلْذَاذُكَ بِالْبَلَاءِ تَحْقِيقُ الرِّضَا»

البلاء مما تفر منه النفوس، ومتى يصل العبد إلى درجة الرضا، إذا صار يتلذذ بالبلية من حيث هي، وهذه درجة الصديقين من خواص الذاكرين والموحدين، وسبب تلذذهم بالبلاء رؤيتهم المبلي قبل وقوع البلاء، فلهذا خف عنهم ما نزل وتلذذوا بما حصل، قال في الحكم العطائية: [ليخفف ألم البلاء عليك، علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك. فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي

عودك حسن الإختيار.] فمن استحضر اختيار الحق تبارك وتعالى واعتنى بحسن تدبيره، في الغالب لا يعترض عليه، قال عليه الصلاة والسلام لمن قال له أوصني: **لا تتهم الله في شيء قضاه عليك.** وعن مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر وكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له.** وروي أن عيسى عليه السلام أنه قال: [لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله، لما يرجو بذلك من كفارة خطاياه.] قال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه: خرجت مرة وكانت فيّ قروح وأنا في صورة وحشة من ذلك، فدخلت الحمام ففتح على قلبي بشيء من الرضا فكنت ألثم كل واحدة من تلك القروح، فخرجت ولم يبق منها أثر. قال في التنوير: إنما يقويهم على حمل أقداره الشهود حسن اختياره. وفي هذا المعنى قيل:

وخفف عني ما ألاقي من العنا ☆ بأنك أنت المبتلي والمقدر
وما لامرىء عما قضى الله معدل ☆ وليس له منه الذي يتخير

فمن كشف له عن حقيقة البلاء وتحقق بأن الله هو الفاعل لم يتألم بما أصابه، بل يتلذذ في الغالب.

كان أستاذنا الشيخ سيدي محمد البوزيدي رضي الله عنه كثيرا ما يستولي عليه البسط وإظهار الحقائق إذا أصابه الألم، ومن العجب أننا دخلنا عليه في مرض أصابه عدم فيه يدا ورجلا أي تعطلتا عن الحركة، فلما تكلمنا معه وكنا في أسف على

ما أصابه، فوجدناه منشرح الصدر، ومن جملة ما أخبرنا أنه قال: منذ دخلت الطريق لم نجد عبارة أفصح وأشفى مما وجدت في هذه الليلة، وذلك أنني كنت نائما فاستيقظت وأمسست بيدي المتحركة هذه اليد المعدومة الحركة، فظهر لي أنها يد أجنبية حيث لم احس بها فقبضت عليها وناديت على أهل البيت أن يوقدوا المصباح، فلما أوقدوه وجدت نفسي قابضا على يدي بيدي لا غير، فتحيرت في ذلك وقلت: يا سبحان الله، هذا حال من لا يعرف مولاه وهو معه ولا يراه. وفي ذلك قلت:

ظللت نفسي في نفسي ☆ وكنـــت فقيـــد

تائهـــا عني في حسي ☆ والأمر وحيـــد

وهذا مما يدلك على وجود تلذذهم بالبلاء، وصحة إكتفائهم باختيار الله لهم.

ثم قال رضي الله عنه:

«إجْعَلِ الْصَّبْرَ زَادَكَ وَالْرِّضَا مَطِيَّتَكَ وَالْحَقَّ مَقْصَدَكَ وَوِجْهَتَكَ.

لما كانت الطريقة إلى الله كثيرة الشعاب والقواطع، وكان المريد إلى الله يحتاج إلى تمام الإستعداد بأن لا يرجع من طريقه أو ينكس عن عقبه، نصحه المصنف رضي الله عنه بقوله: اجعل أيها المريد الصبر زادك فهو نعم الزاد. قال تعالى: **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم**

تفلحون. لأن المريد في الغالب يطرأ عليه ما يفشل عزائمه إن لم يكن متزودا بالصبر والتقى، **فإن خير الزاد التقوى.** ومن لم يكن الصبر زاده فبماذا يدفع ما يطرأ عليه من الطوارىء المناقضة لسيره، بل لا ينفعه في ذلك إلا الصبر الجميل ولا يأخذ بيده إلا الرضا بقضاء الله كما قال واجعل الرضا مطيتك. لتسرع في المسير إلى الحق، لأن النفس إذا كانت راضية في طلب الله فستكون مرضية عند الله، ومن لم يحمه الرضا في طلب الله، في الغالب لا يثبت، من أجل أن الحضرة العليا محفوفة بالمكاره، حتى ربما يُنَغِّصُ عيش السائر إلى الله ليتحقق صدقه، لقوله عز من قائل: **الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون.** وقال أيضا: **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات.** وإن كان كذلك، فرابط على الصبر واقتد بمن قال:

ويا حسن صبري في رضى من أحبها ☆ تجمل وكن للدهر بي غير مشمت
ويا جلدي في جنب طاعة حبها ☆ تحمل عداك الكل كل عظيمة
ويا جسدي المضنى تسل عن الشفا ☆ ويا كبدي من لي بأن تتفتتي
ويا سقمي لا تبق لي رمقا فقد ☆ أبيت لبقيا العز ذل البقية

قال الجنيد رضي الله عنه: [كنت نائما عند السري السقطي رضي الله عنه فأيقظني وقال لي: يا جنيد كنت كأنني واقف مع ربي عز وجل فقال لي: يا سري خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتي، فخلقت لهم الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم، وبقي معي العشر، وخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي عشر

العشر، وخلقت النار فهرب مني تسعة أعشار العشر، فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر، فقلت للباقين معي: لا الدنيا أردتم ولا الجنة أخذتم ولا من النار هربتم ولا من البلاء فررتم فماذا تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد. فقلت لهم: إني سأسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم به الجبال الرواسي أتصبرون؟ قالوا: إذا كنت أنت المبلي فافعل ما شئت. فهؤلاء عبادي حقا.] ولو لم يكن الرضا مؤنسهم وناصرهم فبماذا يتحملون هذه الأثقال التي تدكدكت لها الجبال. وكفى بما قيل ان البلاء وكل بالولاء

وحاصل الأمر، من لم يكن الرضا مطيته لم يصل إلى مقصده، ولكن من جعل الحق مقصده هان عليه ما يلقاه، بل يتلذذ بكل تعذيب يفيد القرب، كما يتألم بكل نعمة تفيد البعد، وأين النعمة مع الحجاب وأين البلية مع الإقتراب؟ قيل في هذا المعنى:

وما الصد إلا الودّ ما لم يكن قلى ☆ وأصعب شيء غير إعراضكم سهل
وتعذيبكم عذب لدي وجوركم ☆ علي بما يقضي الهوى لكم عدل
وصبري صبر عنكم وعليكم ☆ أرى أبدا عندي مرارته تحلو
أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي ☆ يضركم لو كان عندكم الكل

وقال أيضا:

عذب بما شئت غير البعد عنك تجد ☆ أوفى محب بما يرضيك مبتهج
وخذ بقية ما أبقيت من رمق ☆ لا خير في الحب إن أبقى على المهج
من لي بإتلاف روحي في هوى رشإ ☆ حلو الشمائل بالأرواح ممتزج
من مات فيه غراما عاش مرتقيا ☆ ما بين أهل الهوى في أرفع الدرج

إذا كان الحق مقصد العاشق فلا يمكن أن يعوقه عائق، بخلاف من لم يحقق المقصود ولم يدر ما غاية الطريق، تجده في ريبه يتردد ولأدنى شيء يمنعه في سيره لأن همته محصورة في الخلق، فلو جاوزت همته الحور والقصور والثواب والأجور والدرجات والمقامات لما التفت لما يلقاه من الأفات، كما لا يلتفت لما سوى مقصوده من الكشوفات والكرامات، لأن مقصود العارفين من وراء ذلك. قلت في هذا المعنى:

قـد جاوزنـا عدنـا ☆ وحــور الخيـام
مـــالي وللحسنى ☆ إن صـــح مرامي

وعليه إن السبب في رجوع أكثر السائرين من الطريق وتعسر الفتح عليهم: إما لعدم المرشد العارف بالمسالك، وإما لجهل المريد بقصد القوم. تجد أكثر المنتسبين لايدرون ما غاية العارفين ولا إلى أين منتهى سيرهم، حتى ربما يمر أحدهم على مقام عزيز الوجود ويفرط فيه بسبب تشوفه إلى حظوظ وهمية وتخيلات واهية، ولو حقق مقصده أولا في الطريق قبل بدء سيره لما اختلطت المسالك عليه. قلت:

رأيت عيون الخلق زاغت عن ربها ☆ لجهلهم بـالمعنى غلطوا وغلطـوا
تهورت الطـلاب في السير حيرة ☆ فتجاوزوا المطلوب فرطوا وأفرطوا
خلفوا حق اليقين في الخلق ظاهرا ☆ وزادوا في سيرهم فلهـذا قنطـوا

مطلب العارفين هو الوصول إلى الله لا غير، أي الوصول إلى العلم به بأنه هو الظاهر في العالم ظهورا لا يمكن احتجابه كشفا وعيانا، متحققين بحقيقة الأية الشريفة: **هو الأول والآخر**

والظاهر والباطن. أو بقوله: **فأينما تولوا فثم وجه الله.** حتى إذا انطبعت عليهم مراتب الوجود من حيث البطون والظهور، وأخذتهم الصمدانية إلى غيب الأحدية، فتتحير الأفكار ويضمحل الأثار، وينادي داعي الواحدية عند فقد الغيرية، **لمن الملك اليوم،** فيجيبه لسان العارف: **لله الواحد القهار.** فإذا أشرقت البصيرة في البطون، وحققت ذلك السر المكنون، الذي لم يكن سابقا له في المظنون، يقول العارف: عرفت الله في التنزيه ولم أجد له شبيها، فتصدقه حقائق الذات الغنية عن الأسماء والصفات قائلة له: **ما كذب الفؤاد ما رأى،** فيرفع بصره مصحوبا ببصيرته إلى عالم التلوين، فيتحير في صفة التكوين قائلا: **فتبارك الله أحسن الخالقين** أنت **(هو الأول والآخر والظاهر والباطن) (ليس كمثله شيء)** في التنزيه **وهو السميع البصير** في التشبيه فتصدقه حقائق الصفات المتعلقة بالمكونات قائلة: **ما زاغ البصر وما طغى،** فيكون العارف حينئذ عارفا باللطيف والكثيف والخسيس والشريف قائلا: إن الوجود جلال وجمال، ودنت من مقتضى الكمال، كما أنه تنزيه وتشبيه، وكل من التنزيه والتشبيه، **أينما تولوا فثم وجه الله ■ هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم.** أي في سماء اللطافة من حيث العليم، وفي أرض الكثافة من حيث أنه حكيم، أو تقول: في سماء التنزيه من حيث **ليس كمثله شيء،** وفي أرض التشبيه من حيث **هو السميع البصير.** أو تقول في سماء الربوبية من حيث اللطيف وفي أرض العبودية من حيث الخبير، وكل ذلك من مقتضى

الذات **الجامعة لمراتب** الوجود، لاهوت وناسوت. وقد تقدم أن مطلب **الطرفين من** مولاهم الإطلاع على مقتضى الذات، وبكشفهم عن **هذه الحقيقة** يحصل لهم الفنا عن أنفسهم، بل عن كل نسبة **خلقية وبعد** حصول هذه الحقيقة يطلبون بالرجوع إلى مركز **الأدب والقيام بما** وجب عليهم، فهذا هو المقصود من سير القوم لا غير، **والله على** ما نقول وكيل.

فمن كانت هذه نيته في الطريق ووجهته في التحقيق فلا جرم **تفتح له الأبواب** من أجل إصلاح النية **فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله.** فما طالت الطريق إلا **على من** لم يحقق ما وراء ذلك، فتجده يتخبط في ظلمات بعضها فوق بعض.

إياك يا أخي أن تتعدى نيتك إلى غير ما ذكرنا، فيفوتك خير كثير، وتبقى كحمار الرحى، المحل الذي انتقلت منه هو الذي تعود إليه، حيث لم يكن لك قصد. ومن أجل هذا لم يأخذ الله تبارك وتعالى بيد أكثر الطالبين، لعدم اضطرارهم إليه، ولو اضطروا إليه لأخذ بيدهم، وكيف لا، وهو يقول: **أمن يجيب المضطر إذا دعاه.**

إجعل أخي بارك الله فيك الحق مقصدك ووجهتك لا غير، فلو كنت على هذه الحالة، لوجدت الحق أقرب إليك من حبل الوريد، قال عليه الصلاة والسلام: **احفظ الله تجده أمامك.** وإياك والإهمال والكسل والأمنية، فيفوتك الحق وتلك هي الحسرة والندامة، ما دمت في تقصير عن طلبه.

نسأل الله ان يرزقنا حسن التوجه إليه وتمام السعي الى رضاه وان يجعل مقصدنا فيه ووجهتنا إليه حتى يفتح لنا ابواب الرضا والرضوان **ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم.** آمين

تمت بحمد الله الطبعة الجديدة من الجزء الاول من المواد الغيثية يوم الاربعاء 26 جمادى الأولى 1409 هـ الموافق لـ 4 يناير 1989 م

نشير الى ان الجزء الثاني من هذا الكتاب مازال مخطوطا وسيقدم ان شاء الله للطبع في المستقبل بإذن الله تعالى إنه الموفق للصواب.

فهرس الجزء الأول من كتاب المواد الغيثية

كتاب
المواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية

لا ادري أي الكتابين اجل، وأي الكاتبين اعظم ؟ صاحب الحكم الغوثية: ابي مدين شعيب أم شارحها الاكبر : احمد بن مصطفى العلاوي ؟ وكلا الرجلين قطب في عصره، امام في فنه، وكلا الكتابين فريد في نوعه، غريب في شكله وحيد في مضمونه فهما عمدة السالك وغاية الواصل ومنهج المريد لأنه يضم بين دفتيه لب الحقيقة ومنهاج الطريقة.

والكتاب بشقيه بحر يعج بأنواع الأصداف والجواهر. فعلى القاريء ان يحسن الغوص ليستخرج للناس ما يشتهون ولنفسه ما يحبه ويرجوه.

رقم التسجيل

87 - 2460

المطبعة العلوية
IMPRIMERIE ALLAOUIA
MOSTAGANEM